الدكتور
السيد محمد ديب

شعراء الطائف
في الجاهلية والإسلام

الطبعة أولى
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

دار الطباعة المحمدية
٦ درب الأتراك بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد يسرت لى بعض السنوات التى عشتها فى مدينة الطائف أن أرجع إلى تاريخها القديم ، وحاضرها المشرق ، فطالعت ما كتبه السابقون واللاحقون عنها ، وأحببتها وتعلقت بها ، وتنسمت هواءها ، وتجولت بين وديانها وجبالها وقراها .

وكان كتاب (الطبقات) لابن سلام الجمحى نافذة أطللت منها على شعراء الطائف فى العصرين الجاهلى والإسلامى ، غير أن هذه النافذة كانت ضيقة جداً ، فلم أر منها إلا خمسة شعراء ، وهم أبو الصلت بن ربيعة ، وابنه أمية ، وأبو محجن الثقفى ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل . وترك الجمحى بعض الأسماء الأخرى التى غفل عنها ، أو تجاهلها ولم يذكرها ، وقال :

« وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أوقوم يغاورون ويغار عليهم . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ، ولم يحاربوا . وذلك الذى قلل شعر عمان . وأهل الطائف فى طرف »(١) وكان ما كتبه عن هؤلاء الشعراء قليلا جداً لا يتجاوز عدة صفحات ذكر فيها مجموعة

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى جـ ١ ص ٢٥٩ (تحقيق محمود محمد شاكر) .

من الأخبار والأشعار ، ولهذا رجعت إلى كل ما تيسر لى الرجوع إليه لدراسة شعراء الطائف فى تلك الحقبة دراسة موسعة تشمل من كان منهم من قبيلة (ثقيف) أو من غيرها .

وقد تجلى أثر البيئة فى شعر (الطائفيين) بمستويات مختلفة ، فشعر كل أمة قطعة من حياتها وناموس معيشتها ، يقتطعه الشعراء مما ينتابها ويلم بها من حوادث الدهر وعوادى الزمان .

وحرصت على دراسة كل شاعر دراسة مستقلة تكشف عن مدى ارتباطه ببيئته ، وترصد مناحى الفوارق التى تميزه عن غيره ، وبدأت الكتاب بتمهيد رأيته ضرورياً ؛ للتعرف من خلاله على مكانة هذه المدينة فى الجاهلية وبعدها ، ووصفت ماشاهدته فيها فى العصر الحاضر ، ثم قسمت الحديث عن الشعراء إلى بابين ، جعلت الباب الأول خاصاً بالجاهليين ، وتكلمت فى الفصل الأول عن أمية بن أبى الصلت ، فهو شاعر متفرد ، وذو مكانة مرموقة استهوت القدماء والمحدثين للتعرف عليها ، والكتابة عنها وبحث أسبابها ، بل إن عدداً من المستشرقين قد لقوا فى عدائه للإسلام ، ورثائه لقتلى المشركين فى بدر ماحفزهم على قراءة ديوانه ، والتنقيب عن شعره .

وتحدثت فى الفصل الثانى عن ذى الإصبع العدوانى ، ذلك الشاعر المتفرد الذى برز فى قول الحكمة ، والدعوة إلى الحب والسلام ، أما الفصل الثالث فكان عن ثلاثة من الشعراء المقلين وهم غيلان بن سلمة ، وكنانة ابن عبد ياليل ، وأبو الصلت بن ربيعة .

وبات من الواضح أن أمية (الثقفى) كان أبرز من أفرزتهم الطائف فى نهاية العصر الجاهلى ، ولذا استحق أن يكون المقدم فى الذكر على الآخرين .

وقد عقدت الباب الثـــانى للحديث عن شعراء الطائف فى العصر الإسلامى ، ونقصد به عصر صدر الإسلام وعصر بنى أمية ، وتحدثت فى الفصل الأول عن الشاعر أبى محجن الثقفى ، وهو الذى برز فى شعر الخمر والفروسية ، فهذان اللونان كانا أصدق تعبير عن علاقة الشاعر ببيئته ، فقد شرب الخمر ، وتحدث عنها من خلال إقامته فى الطائف التى كانت ذات شهرة كبيرة فى زراعة العنب وصناعة الزبيب ، كما نبغ فى الجهاد ، حيث أبلى بلاء حسناً فى قتال المسلمين للفرس .

أما محمد بن عبد الله النميرى الذى خصصت له الفصل الثانى فكان صاحب نسيب فى زينب أخت الحجاج التى تغزل فيها بعفة ، وكأنه من البادية وليس من الحاضرة ، وكان شاعراً ملتزماً بالأصول والأعراف التى تفرضها المبادىء الإسلامية والمعايير القبلية ، وجاء الفصل الثالث للحديث عن يزيد بن الحكم ، ذلك الشاعر الذى خبر النفوس ، وحللها تحليلا نفسياً فى القصائد التى اتجه بها إلى بعض أقاربه ، وقد تجلت فى (يزيد) الثقة بالنفس والترفع عن الدنايا ، ورفض التزلف مما أهـــله — حسب وجهة نظرى — لأن يكون شاعر ثقيف فى الإسلام .

وكان العرجى الذى تكلمت عنه فى الفصل الرابع شاعر الحب والطموح ، أما الحب فقد دفعه لأن يتعقب الجميلات ، ويتغزل فيهن بأرق الغزل وأجمل الشعر ، أما الطموح فقد دفعه لأن يقضى تسع سنوات من عمره داخل السجن إلى أن مات فيه لعدائه مع والى مكة . ويزيد ابن ضبه — الذى ذكرته فى الفصل الخامس — شاعر من الموالى ، وقد أنشد شعره فى المدح والغزل والطرد ، وقال ألف قصيدة اقتسمها شعراء العرب ، ولم يبق له إلا القليل . وطريح الثقفى شاعر متخصص فى مدح (الوليد بن يزيد) وعاصر بعض الخلفاء من الدولة العباسية . وتحدثت عنه فى الفصل السادس :

أما الفصل السابع والأخير فقد تحدثت فيه عن ثلاثة من المقلين وهم القاسم بن أمية والمغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف .

وجعلت الخاتمة لبحث ملامح هؤلاء الشعراء ، وبيان النتائج المستقاة من هذه الفصول ، وانتهى الكتاب بقائمة للمصادر والمراجع التى اعتمدت عليها عند التأليف .

وآمل أن أكون قد وفقت فى دراسة كل ماعرضت له ، سائلا المولى سبحانه وتعالى أن يجنبنى الخطأ والزلل ، فهو نعم المولى ونعم النصير ؟

دكتور / السيد محمد أحمد ديب

المطرية بالقاهرة فى ٢/ صفر ١٤١٠ هـ .

٢/ سبتمبر ١٩٨٩ م .

تمهيد

ذكر الأستاذ عثمان الصينى ثبتاً بالكتب والرسائل والمؤلفات التى تحدثت عن الطائف قديماً وحديثاً فى معرض تقديمه لكتاب (نشر اللطائف فى قطر الطائف) لعلى بن محمد الكنانى ، وأورد منها تسعة وعشرين مؤلفاً من بين الكتابات التى عرضت بالبحث والتحقيق والدراسة لهذه المدينة التاريخية .

وفضلا عن العدد السابق نجد كثيراً من المؤلفين يتحدثون فى كتبهم عن الطائف ، فهى إحدى مدن الحجاز ، أى أن حديثهم عنها جاء مقروناً بما كتبوه عن مكة المكرمة أو غيرها من المدن الأخرى ، ومن هؤلاء البلاذرى فى كتابه (فتوح البلدان) وخير الدين الزركلى فى كتابه (مارأيت وما سمعت) والدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه (فى منزل الوحى) .

ولانرى أن الطائف قد لقيت إهمالا من المؤلفين ، بل لقيت العناية والاهتمام .

فالقدماء وضعوا عنها المؤلفات والرسائل المتعددة التى تتناسب مع طبيعة منهجهم فى الكتابة عن البلدان ، أما المحدثون فلم يخلوا بدراساتهم عنها ، لما لها من أهمية بالغة تاريخياً وجغرافياً .

فهى البلدة التى ارتحل إليها الرسول ﷺ قبل الهجرة إلى المدينة ، ولعله أراد أن تنتقل دعوته إليها بيسر وسهولة ، لشدة الارتباط بينها وبين مكة ، خاصة وأن القرشيين يرتحلون إليها ، ويقضون صيفهم ، بها

لطيب هوائها ، وكثرة زروعها ، ووفرة الفواكه فيها ، وقد قال محمد بن عبد الله النميري يصف أخت الحجاج بالترف والنعمة :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وربما حن الرسول ﷺ — بارتحاله إليها — إلى طفولته المبكرة، ورضاعته من حليمة السعدية ، فالمعروف أن منازل بنى سعد تقرب من الطائف وتتبعها (إداريا) الآن .

وقد ذهب الرسول ﷺ إلى الطائف مرة أخرى بعد فتح مكة ، وحاصرها ما يقرب من شهر ، وتركها بدون الدخول مع أهلها فى قتال، وإن استشهد فيها أثناء الحصار بعض المسلمين ، والذين بقيت قبورهم إلى الآن بجوار مسجد عبد الله بن عباس شاهدة على أحداث التاريخ .

وشاءت إرادة الله أن يدخل هذا البلد فى الإسلام سلماً عندما ارتحل جماعة من أهل الطائف إلى الرسول وهو بالمدينة المنورة ، وأفضوا إليه برغبتهم فى الإسلام ، وهكذا توالت اتصالات الرسول ﷺ بهذا البلد على فترات متباعدة أحياناً ومتلاحقة فى أحيان أخرى .

وترجع أهمية الطائف وعناية المؤلفين بها — بدرجات متفاوتة — إلى عدة أمور منها :

١ — موقعها :

تقع الطائف فى الجنوب الشرقى من مكة المكرمة ، وتحتل الجزء الجنوبى من جبال الحجاز (السروات) ويزيد ارتفاعها عن مستوى سطح البحر ما بين ألف وسبعمائة متر إلى ألفين وخمسمائة متر ، حيث يبلغ هذا الارتفاع ذروته فى جبال الشفا ، ولهذا اشتهرت منطقة الطائف عموماً

بطيب هوائها ، وجودة مزارعها ، وعرف الجبل الذى تقبع فوقه باسم (غزوان) وهو من أبرد الأمكنة فى الحجاز .

ترتبط الطائف بمكة المكرمة بأكثر من طريق ، ولذا تختلف المسافة بينهما من طريق إلى آخر ، وقد أعدت المملكة العربية السعودية طريقين مشهورين: أولهما طريق الهدى ، وتبعد الطائف عن مكة من خلاله خمسة وثمانين كيلو مترا تقريبا ، وثانيهما طريق السيل ، وتصل المسافة بين المدينتين من خلاله إلى مايقرب من مائة وخمسة عشر كيلو مترا .

وقد عرفت الطائف بهذا الاسم نسبة إلى السور المبنى حولها والملتف بها ولذا قال أمية بن أبى الصلت :

نحن بنينا حائطاً حصينا   يقارع الأبطال عن بنينا

فالهدف المباشر من السور هو حماية المدينة من الأعداء ، حتى ضرب المثل بمناعتها فقيل :

منعنا أرضنا من كل حى   كما امتنعت بطائفها ثقيف

وذكر المؤرخون والجغرافيون العديد من الروايات عن سبب التسمية والهدف من السور الذى أقيم حولها ، وليرجع من شاء إلى هذه الروايات فى مظانها(١) . ولم تعد الطائف قاصرة عما كان داخل

---

(١) انظر مثلا معجم ما استعجم للبكرى حـ ١ ص ٩٧ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومعجم البلدان لياقوت حـ ٤ ص ٩ طبع دار صادر بيروت ، وغيرهما من المؤلفات القديمة والحديثة .

السور(١)، بل صارت تشمل العديد من القرى والأودية والجبال التى تقع كلها على جبال السروات .

وقيل إن الطائف كانت تسمى (وج) قبل أن يلتف السور حولها، على أن الروايات القديمة لا تقدم صورة واضحة لهذه المدينة ، بل يكتنفها الغموض الشديد ، خاصة وأن المنطقة فقيرة فى الآثار التى تسهم فى جلاء الحقيقة التاريخية القديمة ، كما نلحظ التضارب الشديد بين العديد من هذه الروايات ، ولكن لا خلاف على أهميـــة السور بالنسبة للطائف ، فلم يستطع الرسول وجيوشه التى انتصرت فى مواقع كثيرة أن يقتحم هذه المدينة ، لمناعة حصونها واستبسال أهلها فى الدفاع عنها .

٢ — اعتدال مناخها وكثرة المزارع بها :

لقد أسهم موقع الطائف فى اعتدال مناخها على مدار السنة ، وإن مال طقسها إلى البرودة فى الشتاء ، بينما تتراوح درجة الحرارة بين ثلاثين وخمس وثلاثين صيفاً ، وهى معدلات ممتازة بالنظر إلى مدن الحجاز الأخرى .

وتتكون الطائف من أودية وهضاب وجبال شاهقة الارتفاع وقرى صالحة للزراعة ، وقد هيأ هذا التنوع للمنطقة أن تكون مزرعة كبيرة تغذى مكة وماعداها بالخضراوات والفواكه طوال السنة ، كما تميزت المدينة بهذا الازدهار الزراعى حتى قيل فى التعريف بها : « ناحية ذات نخيل وأعناب ومزارع وأودية على ظهر جبل غزوان »(٢) .

---

(١) أزيل السور المحيط بالطائف عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٧ م) .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٧٤٦ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

وهى — كما قال عرام بن الأصبغ : « ذات مزارع ونخيل وموز وأعناب وسائر الفواكه . وبها مياه جارية ، وأودية تنصب منها إلى تبالة »(١).

وتحدثت مجلة الفيصل فى تحقيق لها عن انتشار الزراعة بالطائف فقالت « إن هذا التنوع فى المنـــاخ والتضاريس الأرضية ، وخصوبة الأرض أدى إلى انتشار الزراعة وتنوع المحاصيل الزراعية فى هذه المدينة على سائر مدن الحجاز ونجد ، ونتيجة لانتشار الزراعة على نطاق واسع فقد أصبحت هذه المدينة المكان الذى يسر الزائرين ، ويشرح قلوبهم ، فقد قال الأصمعى (دخلت الطائف وكأنى أبشر وقلبى ينضح بالسرور ، ولم أجد لذلك سبباً إلا انفساح جوها وطيب نسيمها) »(٢).

ولم تعد الزراعة فى الوقت الحالى بالصورة التى تحدث عنها القدماء وبعض المعاصرين الذين لم يشاهدوا هذه المدينة ويعيشوا فيها حيث يعجب الناس بما سطره المؤرخون عنها ويظنون أن أرضها مازالت على الصورة القديمة التى تحدثت الكتب بها ، فقد سحبت المياه التى كان يستفاد منها فى رى الأرض ، وجهزت علمياً ، وأعدت لاستعمالات السكان الذين زادوا عن ذى قبل بصورة كبيرة ، إذ أن كثيراً من سكان القرى قد استقروا فى المدينة وزادت الحاجة إلى المياه وأعتقد أن الأمور ستتغير إلى صالح الزراعة بعد وصول المياه المحلاة من البحر إلى مدينة الطائف .

---

(١) أسماء جبال تهامة وسكانها لعرام بن الأصبغ السلمى ص ٤٢٥ (المجموعة الثامنة من نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون)الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ بمطبعة الحلبى .

(٢) الفيصل — السنة الأولى — العدد الرابع شوال ١٣٩٧ هـ (سبتمبر ١٩٧٧ م) ص ٤٥

وقد صارت الزراعة — الآن فى ظـــل استغلال المياه للشرب — قاصرة على بعض الأودية والروابى العالية والمزارع الصغيرة التى ينهض بها الأفراد بدعم من الدولة ، وقد شاهدت العديد من أنواع الخضر والفواكه التى تزرع فى منطقة الطائف ومن أهمها العنب والمشمش والتين والرمان بالإضافة إلى أنواع كثيرة من الخضر مثـــل الخيار والطماطم وغيرهما .

أسهم مناخ المدينة وطقسها الجميل فى إقبال الناس عليها والإقامة فيها بعض شهور العام ، وبها مسـاكن كثيرة لا تفتح أبوابها إلا صيفاً عندما يأتى إليها أصحابها من جدة ومكة والرياض ، حيث تتميز الطائف بوجود الأماكن التى تتلاءم مع النزهة والارتحال مثل وادى محرم وجبال الهدى ومنطقة الردف وجبال الشفا وغيرها . . .

ولذا قال أحد الباحثين : « وتعتبر الطائف منطقة اصطياف لأهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز ، حيث المناخ المعتدل ؛ لوقوعها على سفح عال من سفوح جبال السراة الحاجزة بين الحجاز وقلب شبة الجزيرة العربية ، وقد جعلها وقوعها على منبسط فسيح خصب التربة كثير المياه بارد الهواء ، كثير الفواكه والزروع كالمصيف يلجأ إليها الناس فى أشهر الصيف إذا اشتد الحر بهم »(١) .

وهكذا نلاحظ أهمية موقع الطائف وطيب هوائها وكثرة الفواكه بها ، حتى صارت مصيفاً لأهل مكة قديماً ولكل المملكة العربية السعودية حديثاً .

---

(١) الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية للدكتور عبد الجبار منسى ص ٥٨ نشر دار الرفاعى بالرياض ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م الطبعة الأولى .

٣ — إقامة قبيلة ثقيف بها :

تختلف الطائف فى مكوناتها السكانية عن أى بلد آخر قديماً وحديثاً ، فقد ورد أنها كانت تسمى بـ (وج) ، ثم سميت بالطائف (قبل الإسلام)، ورأى البعض أن التسمية قد تكون بسبب وجود اللات بها، وهو المعبود الرئيسى للثقفيين حيث كانوا يعظمونه ويطوفون حوله(١) .

وترتبط التسمية بـ (وج بن عبد الحى) بفترة حكم العماليق ، ثم أعقبتها فترة دانت فيها لبقايا من ثمود ، إلا أن تاريخ هذه الحقبة ليس واضحاً على الإطلاق . . مع أن اللات بقيت فى هذه المنطقة حتى هدمت على عهد الرسول ﷺ . . ولاشك فى أن الذين عاشوا بالطائف قبل الإسلام كانوا فئات مختلفة تتفاوت فى القلة والكثرة .

ولقد تحدثت الكتب والمراجع عن إقامة قبيلة ثقيف بها ، وأفاض البكرى وياقوت وغيرهما عن دخول الثقفيين لهذه البلدة واستقرارهم بها، مع أن الطائف لم تكن مستقراً لكل ثقيف . كما أنها لم تكن قاصرة عليهم ففيها جماعات من قريش وهذيل وهوازن وغيرهم ، فيقول ياقوت: «وجل أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش ، وهى على ظهر جبل غزوان وبغزوان قبائل هزيل»(٢) .

ويعود تاريخ الطائف فى إحدى مراحله الأولى إلى قبيلة عدوان التى استقرت بها زمناً طويلا ، وظهر من بينهم علماء وشعراء ، ولازالت

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٩

(٢) معجم البلدان جـ٤ ص ٩

كتب الأدب والتاريخ تذكرهم بكل تقدير إلا أن تاريخ (عدوان) لم يلبث أن اندثر بسبب الحروب كما يقول البكرى أو بسبب قبيلة (ثقيف) كما يروى ياقوت .

وقد جاء فى معجم ما استعجم ما يأتى : « ووقعت بين عـــدوان حروب ، فتفرقت جماعتهم ، وتشتت أمرهم ، فطمعت فيهم بنو عامر ، وأخرجتهم من الطائف ، ونفوهم عنها ، وفى ذلك يقول حرثان بن محرث ذو الإصبع العدوانى :

بغى بعضهم بعضاً فلم يرعوا على بعض
وهم بوؤا ثقيفاً دا ر لا ذل ولا خفض(١)

بينما ذكر ياقوت أن ثقيفاً قد نزلوا الطائف وعاشوا بها متجاورين مع عدوان إلى أن أخرجوهم منها قال : « فلم يزل ثقيف مع عدوان حتى كثر ولده ، وربلوا وقوى جأشهم ، وجرت بينهم وبين عدوان هنات وقعت فى خلالها حرب انتصرت فيها ثقيف ، فأخرجوا عدوان عن أرض الطائف ، واستخلصوها لأنفسهم ، ثم صارت ثقيف أعز الناس بلداً ، وأمنعه جانباً ، وأفضله مسكناً ، وأخصبه جناباً ، مع توسطهم الحجاز وإحاطة قبائل مضر واليمن وقضاعة بهم من كل وجه لحمت دارها ، وكاوحت العرب عنها واستخلصتها ، وغرست فيها كرومها ، وحفرت بها أطواءها وكظائمها . . »(٢) .

وهكذا يتأكد لنا اختلاف المؤرخين حول استقرار العمالقة وثمود بها وخروج عدوان منها ودخول ثقيف فيها .

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى جـ ١ ص ٧٧

(٢) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ١٠

ولما ظهر الإسلام كانت ثقيف فى أفضل عصورها ، وأزهى قوتها، حيث برز منها مجموعة من الرجال الذين حققوا لها مزيداً من الشهرة والذيوع ، سواء فى الشعر أم فى السياسة ، أم فى غيرهما من مجالات الحياة .

أما نسب ثقيف فقد اختلف الإخباريون فيه أيضاً بمثل اختلافهم فى الروايات الكثيرة التى وضعت عن هـــذه القبيلة فى الجاهلية والإسلام.

ويحرص أهل ثقيف على الزراعة ، فيشتغلون بها ، ويعنون بغرس الأشجار ،ويسعون إلى جلب أنواع جديدة منها ، وهم كما يقول الدكتور جواد على : « حضر مستقرون متقدمون بالقياس إلى بقية أهل الحجاز »(١) .

كما يميلون إلى الحرف اليدوية مثل الدباغة والنجارة والحـــدادة وغيرها .

ومن رجال ثقيف فى الجاهلية والإسلام أمية بن أبى الصلت، وكنانة ابن عبد ياليل. والحارث بن كلدة والمغيرة بن شعبة ، وغيلان بن سلمة ، وأبو محجن الثقفى ، والمختار بن أبى عبيد، والحجاج بن يوسف ، ومحمد ابن القاسم وغيرهم ، وقد دخلت ثقيف فى الإسلام صلحاً بعد أن امتنعت ديارها على جيوش الرسول ﷺ قرابة الثلاثين يوماً .

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ح٤ ص١٥١ الطبعة الأولى ١٩٧٠م بيروت (دار العلم للملايين).

٤ — وجود العديد من الآثار بها :

تتنوع الآثار بمنطقة الطائف كالمساجد والجبال والهضاب والحصون وسوق عكاظ وسور الطائف وبعض الأودية وغيرها، إلا أن أكثر هذه الآثار قد تغيرت معالمه . أو اختفت تماماً إما لطول الزمن ، أو لعدم العناية بها، أو للحرص على إزالتها مثل سور المدينة الذى لم تبق منه إلا بعض العلامات كباب الريع ، والذى لايشعر بوجود سور ، وإن كان الناس فى الطائف يتحدثون عن تاريخ هذا السور ، عندما يوازنون بين الماضى والحاضر . ونعرض الآن لأهم الآثار التى تشتهر بها الطائف .

(أ) مسجد عبد الله بن عباس :

مات عبد الله بن عباس بالطائف . ودفن بالمكان الذى فيه المسجد اليوم وقد بنى المسجد الذى نسب إليه فى عهد الدولة العباسية أيام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضىء العباسى ، وقد كان المسجد ولا زال موضع العناية من المسئولين ، إذ أنه مجاور لقبور الصحابة الذين استشهدوا فى حصار الرسول ﷺ للطائف .

وفى القرن الحادى عشر نهى الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه خيفة أن يتحول المسجد كله إلى مقبرة ، وأمر أن تقام صلاة الجمعة فيه فى الثالث من جمادى الأولى عام (١٠٥٤ هـ)، ثم استقل المسجد بنفسه ، وانفصلت المدافن عنه ، واتسعت الأرض الفضاء من حوله(١) .

وقد تحدث عنه خير الدين الزركلى فقال : « وهو متسع مستطيل ينسب

---

(١) تنفذ فيها الآن أحكام الإعدام .

إلى ابن عباس لأنه مدفون فيه . وقد كان وما زال موضع عناية زائريه كلما تخرب منه جانب عمر . . »(١) كما تحدث عنه كل من زار الطائف من القدماء والمحدثين .

(ب) مسجد عداس :

يقع مسجد عداس بالمثناة . وهي واحدة من ضواحي الطائف ، التي وصل العمران بينها وبين المدينة من بعض الجهات . وصارت واحداً من أحيائها . ويقع المسجد على جانب من نهاية (وادي وج) وفي أطراف هذا الحي ، وتبعد الدور والمنازل عنه قليلا ، وهو مسجد صغير جداً ، وينسب إلى عداس (النصراني) .

وقد التقى الرسول ﷺ بعداس في هذا الموضع ، ثم دفن فيه عداس وأقيم المسجد عليه والذي لا زال حتى اليوم شاهداً على مالاقاه الرسول إبان رحلته إلى الطائف عندما لجأ إلى حائط عتبة وشيبة ابني ربيعة يحتمي به من أذى السفهاء والمشركين . وفي هذا المكان جلس الرسول ﷺ واتجه إلى ربه قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ! إلى بعيد يتجهمني أو عدو ملكته أمري ! إن لم يكن بك غضب على فلاأبالي ؛ لكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

(١) (مارأيت وما سمعت) لخير الدين الزركلي ص ٩٢ نشر مكتبة المعارف بالطائف .

لم يكن فى رحلة الرسول ﷺ من معروف إلا ماصنعه ابنا ربيعة وفتاهما عداس الذى أقبل على الرسول مقبلا رأسه وقدميه .

أما المسجد فى العصر الحاضر فقد تأثر ببعده قليلا عن قلب المدينة ، فلم يتحقق له من التوسعة والعمارة ما تحقق لغيره من المساجد الأخرى .

(ج) سوق عكاظ :

لا يمثل سوق عكاظ أثراً بارزاً يمكن التعرف عليه لقراءة حوادث الزمن من خلاله ، وإنما تعود أهميته إلى تاريخه الحافل بالنشاط السياسى والأدبى والتجارى ، حيث كانت العرب تجتمع فيه كل سنة فى أول ذى القعدة لمختلف شؤونها . ويمكثون فيه عشرين يوما ينصرفون بعدها إلى سوق آخر .

وقد تحدث القدماء والمحدثون عن عكاظ ، وربط أكثرهم بينه وبين مدينة الطائف لوقوعه فى منطقتها . ولم يعد أبناء المدينة يذكرون لهذه السوق إلا اسمها ، أما الموقع فلا يقل اختلافهم حوله عن غيرهم من القدماء أو المحدثين ممن ليسوا (طائفيين) ، وكانت عكاظ أعظم أسواق العرب ، وكانت تقوم فى سهل منبسط بين مكة والطائف ، وبتحديد أكثر بين نخلة(١) والطائف .

وممن تحدث عنه من القدماء صاحب كتاب (أسماء جبال تهامة) قال : «صحراء مستوية ليس لها جبل ولا علم إلا ما كان من الأنصاب التى كانت فى الجاهلية »(٢) ونلاحظ أنه لم يذكر وظيفتها ودورها فى خدمة الأدب

---

(١) نخلة : هى السيل الكبير الآن .
(٢) أسماء جبال تهامة (نوادر المخطوطات) المجموعة الثامنة ص٤٤٠

على عكس ياقوت الحموى الذى كتب عنها يقول : « اسم سوق من أسواق العرب فى الجاهلية ، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ فى كل سنــة ، ويتفاخرون فيها ، ويحضرها شعراؤهم ، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون »(١)

لقد تضاربت الأقوال حول موقع السوق ، ولم يستطع أحد أن يجزم برأى حول مكانها الحقيقى ، وممن كتب عن موقعه وأهميته من المحدثين والمعاصرين الأمــير شكيب أرسلان فى كتابه (الارتسامات اللطاف) وخير الدين الزركلى فى كتابه (مارأيت وماسمعت) والدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه (فى منزل الوحى) كما كتب عنه الصديق الأستاذ / مناحى ضاوى القثامى فى كتابه (تاريخ الطائف) فقال : « هو فى ذلك المكان الذى يلتقى فيه وادى مشرب ووادى الأخيضر عند ملتقى ماء المبعوث على يمين الذاهب إلى الرياض عبر الطريق المسفلت بمسافة أربعين كيلو متراً من الطائف شرقا عند الآثار الموجودة الآن هناك ، وجنوب غرب منه (حرة الخلص) ومنه أكمة العبلاء القديمة »(٢)

كما أخرج نادى الطائف الأدبى كتابا بعنوان (سوق عكاظ فى التاريخ والأدب) جمعت فيه أكثر الآراء التى قيلت عن موقع هذه السوق ، ولا يكاد اثنان من أصحابها يجتمعان على رأى واحد ، ولكن لاخلاف على أنها كانت تقام بالقرب من مدينة الطائف . وفى ضاحية من ضواحيها .

---

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٢

(٢) تاريخ الطائف قديماً وحديثا . مناحى ضاوى القثامى ص ٦٥ طبع نادى الطائف الأدبى — الطبعة الثانية . والأستاذ مناحى أديب وباحث من أبناء الطائف وعضو مؤسس وعضو مجلس إدارة النادى الأدبى بها : وقد طبع كتابه المذكور مرتين .

ويرجع ضعف الثقة فى كل تحديد حديث لموقع السوق إلى عـدم عناية القدماء بتدوين تاريخها فى بطون الكتب، أو على الآثار الأخرى التى يطمئن إليها، ويوثق فيها، كما لم تذكر المصادر السنة التى اتخذت فيها سوقاً لأول مرة، وإن قيل إن ذلك كان فى الجاهلية بعد عام الفيل بخمس عشر سنة(١)، وتحدث أحد الباحثين عما كان يجرى فى هذه السوق فقال: «وبهذه السوق كانت تباع مختلف التجارات والسلع الثمينة التى كانت تحملها قوافل التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، وكانت لتجارة قريش نصيب أكبر فيها لقربها من مكة وسيطرتها على تجارتها، وحتى البضائع المسروقة والمسلوبة كانت تباع فيها، هذا بالإضافة إلى قيام المناظرات والمباهاة والمسابقات فى قول الشعر والخطابة والبلاغة. وكثيراً ما كانت تعقد فيها مجالس الصلح والتحكيم بين القبائل فتحل المشاكل المعقدة. وفيها تحمل الديون والإتاوات إلى أصحابها. ومع أن عكاظ كانت تقوم فى الأشهر الحرم فإنها لم تنج من قيام الحروب فيها كحرب الفجار مثلاً. وكانت لمنتجات الطائف المختلفة من زراعية وصناعية مكانة كبيرة فيها. وبخاصة عن طريق قريش آنذاك»(٢).

فلم تـكن السوق — إذن قاصرة على أحاديث الشعر والنثر، بل تجاوزت أشكال الأدب إلى ألوان متعددة من الفنون والتجارة والحروب. كما ذكر أن الرسول ﷺ ذهب إليها، وسمع بها خطبة قس بن ساعدة الإيادى وأعجب بها، ودعا لقس فقال: «يرحم الله قسا، إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحدة».

---

(١) انظر كتاب (فى منزل الوحى) للدكتور هيكل ص ٣٦٤، ٣٦٥ طبعة دار المعارف بمصر.

(٢) الطائف للدكتور عبد الجبار منسى ص ٦٧

وقد بقيت السوق إلى أن نهبها الخوارج فى عام (١٢٩ هـ) واندثرت معالمها مع الأسواق الأخرى فى هذا التاريخ تقريباً .

٥ — كلمة أخيرة حول الطائف :

لقد شاهدت الطائف ، وعشت فيها ، وصعدت جبالها ، وتجولت بين أوديتها وقراها ، وتعرفت على حصونها وبقايا سورها القديم ، وتنسمت هواءها وعبيرها البديع ، ولذلك فإننى عندما أكتب عنها فإنما أكتب عن كثير مما شاهدته وقرأت عنه فى مؤلفات القدماء والمحدثين .

وتتميز الطائف — فضلا عما ذكرت — بكثرة المشاهير من علمائها وأبطالها وأدبائها وشعرائها فى الجاهلية والإسلام ، وكان أكثرهم من قبيلة ثقيف بينما كان بعضهم من القبائل الأخرى التى عاشت فى الطائف إلى جوار هذه القبيلة ذات النفوذ الكبير ، وبخاصة فى الفترة التى واكبت ظهور الإسلام .

وقد سجلت بعض الكتب الحديثة أمجاد الطائف ومآثر رجالها فى شتى المجالات نذكر منها كتاب (الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية) للدكتور عبد الجبار منسى العبيدى ، وكتاب (الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام) للدكتورة نادية حسنى صقر ، وكتاب (شعراء ثقيف فى العصر الأموى) لمؤلفه عيضة بن عبد الغفور الصواط وغيرها ، كما كتب عنها كثير من المؤلفين فصولا من كتبهم ، وسبقت الإشارة إليها فى هذا التمهيد ، وكما سوف نشير إليها ، ونستشهد بها فى بعض الفصول التالية من هذا الكتاب .

الباب الأول

شعراء الطائف فى العصر الجاهلى

الفصل الأول

أمية بن أبي الصلت

شاعر ثقيف في الجاهلية

١ — شاعر متفرد :

شاعرنا هو أمية بن أبي الصلت الثقفي . الذي حمل لواء الشعر في ثقيف في سنوات الجاهلية القريبة من الإسلام ، فقد أدرك بدراً ورثى قتلاها في قصيدة ربما تكون واحدة من آخر قصائده حيث ذكرت بعض المصادر أنه مات في السنة الثانية من الهجرة ، على أن أمية قد عاصر بشائر الإسلام وأنواره الأولى ، ولكنه مات على الكفر مع أنه قد مدح الرسول ﷺ بواحدة من أفضل مدائحه .

ارتبط أمية ببيئته (الطائف) التي ولد ومات فيها ، ووصف (وجا، واليمن) وتغنى بأمجاد ثقيف ، تلك القبيلة التي كان حظها من الشعراء في الجاهلية قليلا ، ثم لم يلبث هذا الحظ أن انفرج في الإسلام ... ولذلك كان اسم أمية مضيئاً لامعاً ، لأنه شاعر ثقيف تلك القبيلة المشهورة وصاحبة الأمجاد الكبيرة .

كان أمية يطمع في شرف ليس له وهو النبوة ، فتطلع إليها ، وأعد نفسه بالتثقيف والتحنف وقراءة غير العربية على ما يظهر ، فأورد في شعره كثيراً من الكلمات الغريبة والمعاني العجيبة ، ويبدو أنه أطلع على كتب الأديان الأخرى .

وقد تحدث عنه جواد علي فقال : « وكان بعض العلماء يقول : لولا

النبي لادعت ثقيف أن أمية نبي ؛ لأنه قد دارس النصارى ، وقرأ معهم ودارس اليهود وكل الكتب قرأ . ولم يسلم ورثى قتلى بدر »(١) .

كما ظفر أمية بهبة لم تمنح إلا للقليل ، حيث كان أبوه (أبو الصلت الثقفى) شاعراً ، وقد ضنت كتب الأدب والتاريخ بالحديث عن علاقة أمية بأبيه ، فلم تسعفنا المصادر التى أطلعنا عليها ببيان مدى العلاقة بينهما ، وإن كانت النماذج الشعرية التى بين أيدينا تكشف عن مدى الاختلاف الفكرى بين كل منهما ، وسوف يأتى من شعرهما مايؤكد ذلك .

ذكر أبو الفرج أن لأمية أربعة أبناء ، هم (عمرو ، وربيعة ، ووهب ، والقاسم) وقد امتدت ينابيع الشعر من أمية إلى ابنه القاسم ، ذلك الشاعر الذى سنعرض له عند حديثنا عن شعراء الطائف فى العصر الإسلامى ، كما قيل إن ابنه ربيعة شاعر أيضاً ، فقد روت عنه نماذج شعرية قليلة(٢) .

على أن العلاقة بين أمية وأبنائه لم تكن غائمة مجهولة كالتى كانت بينه وبين أبيه ، فقد أورد محققا الديوان قصيدة له يعاتب فيها ابناً من أبنائه وأولها :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً تعل بما أحنى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتململ(٣)

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٤ ص١٥٦

(٢) منها ما ذكره لويس شيخو فى كتابه شعراء النصرانية ح٢ ص٢٣٧ مكتبة الآداب بالجماميز

(٣) شرح ديوان أمية بن أبى الصلت تقديم وتحقيق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت ص٥٦ ، ٥٧ مع ملاحظة أن هذه الطبعة هى التى سأعتمد عليها فى هذه الدراسة

ولكن أمية أخفى اسم ابنه ، فأصبحت قصيدته موجهة إلى كل أبنائه، بل أصبحت قصيدة الآباء إلى الأبناء .

وتذكر الروايات أن له أخوة ينشدون الشعر ، وقد أثرت هذه الحياة عليه... « فتربى فى عالم الأدب والحسب والنسب ، وعاش عيشة فيها الكثير من الرفاهية والغنى ، وكان هذا كله عاملا من العوامل التى أذكت شاعرية الفتى، إذا أضفنا إليها أجواء الطائف بنسيمها وبساتينها الخضراء، وينابيعها الثرة المعطاء »(١).

٢ — صاحب عقيدة متميزة :

ذكرت الكتب القديمة والحديثة أخباراً كثيرة عن أمية ، وتقاربت فى حكمها على عقيدته الدينية ومذهبه فى الحياة ، ورأت أنه كان مفطوراً على التدين ، وإذا مال من أول أمره إلى التحنف وترك عبادة الأوثان... كما اختلفت الروايات والأخبار فى بيان دوافعه إلى هذا التحنف ، واختلفت أيضاً فى حكمها على موقفه من الإسلام ... ولم يكن هذا الاختلاف إلا محصلة أو نتيجة لمجموع ما جاء فى ديوانه بصرف النظر عما فى شعره من سقطات أو نحل نبه عليه النقاد .

لقد كان أمية يرتاد الأديرة والكنائس ، ويجالس الرهبان والقساوسة ، ويحاورهم فى آداب النفس وأسرار الروحانيات(٢) ، ويبدو

(١) مقدمة الديوان ص ٧
(٢) أنظر المرجع السابق ص ٧

أن اشتغاله بالتجارة وارتحاله من الطائف إلى مكة والشام واليمن قد عرفه ببعض ما كان يشاع فى تلك الأرجاء عن قرب ظهور نبى يهدى الناس إلى سواء السبيل ، والتقى فى رحلته إلى الشام ببعض أهل الدين فزهد فى الدنيا . ولبس المسوح ، ومن هنا أخذ شاعرنا يتطلع إلى النبوة ، ويعد نفسه لها ، فهجر عبادة الأوثان ، وحرم على نفسه شرب الخمر ، واعتقد بوجود الله من غير أن يكون له فروض معينة فى العبادة(١) واستفاد من اطلاعه على بعض الكتب القديمة ، فتهذب أحسن تهذيب ، وتعرف على كثير من الأسرار التى أسهمت فى زيادة طمعه فى النبوة كما تحول زهده إلى نوع من التأمل فى آيات الكون ، والبحث فى الأديان والعقائد ، وقد انعكس كل ذلك على حياته وشعره : أما حياته فكانت قلقة مضطربة ، وكان يمكن لها أن تهدأ وتستقر لو دخل فى الإسلام ، « ولكن موقف قومه (ثقيف) من الإسلام أملى عليه العداء للرسول والمسلمين »(٢) .

ولما بعث الرسول ﷺ أسقط فى يده ، وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه ، فنزل فيه قول الله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين »(٣) .

أما شعره فجاء مخالفاً — بدرجة كبيرة — لمنهاج حياته ، ويبدو أن شهرته

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى القديم لعمر فروخ ص ٢١٦ ، طبع دار العلم للملايين — بيروت

(٢) المرجع السابق ص ٢١٩

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٥

في الحياة ونظرته إلى الوجود الإنساني قد بثهما في شعره ، ولكنه لم يستطع أن يلتزم بهما في الجانب العملي أو التطبيق . فقد «سماه الأصمعي شاعر الآخرة»(١) ، وبذلك وقع أمية في براثن القلق والاضطراب بسبب التنافر الكبير بين نظريته في الحياة وتطبيقه لها ، ولذا كان رسول الله — ﷺ — إذا سمع شعره في التوحيد والإيمان والثناء على الله — يقول : «آمن لسانه وكفر قلبه» ، وروى صاحب الإصابة أنه مات مسلماً ، ونسب الرواة إليه شعراً في مدح الرسول ، ولكن ذلك لن يغير من حقيقة مذهبه في الدين والحياة ، وهو أنه كان متحنفاً ، حيث يقول :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور(٢) .

وقد انعكس هذا التحنف على شعره ، فهو يرغب في الجنة ، ويخاف من الجحيم ، قال :

رب لا تحرمني جنة الخلد وكن رب بي رءوفا رحيما(٣) .

وقال :

جهنم تلك لا تبقي بغيا وعدن لا يطالعها رجيم
إذا شبت جهنم ثم فارت
وأعرض عن قوابسها الجحيم(٤)

ومن شعره الدال على جميل صنع الله ، والداعي إلى التأمل في آيات الكون قوله :

---

(١) تاريخ الأدب العربي — كارل بروكلمان — ج ١ ص ١١٣ ترجمة د/ عبد الحليم النجار طبع دار المعارف .

(٢) الديوان ص ٤٧ (٣) مقدمة الديوان ص ٨

(٤) الديوان ص٦٧

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعاً شدادا بلا عمد يرين ولا رجال
وســواها وزينها بنــور
من الشمس المضيئة والهلال(١)

وقوله :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا(٢)

ولعل هذه المعانى الروحية بما فيها من دعوة صادقة إلى التحنف هى التى جعلت الرسول يقول فيما يرويه مسلم : « كاد أمية أن يسلم » . كما أن الأشعار السابقة تكشف لنا عن بعض آثار الحنيفية فى شعره .

ولقد حالت العصبية الجاهلية والطمع فى النبوة بين أمية والإسلام ، فمع أنه شاعر جاهلى ، عايش فى سنوات عمره الأخيرة بشائر الإسلام فى مكة إلا أنه استسلم لهذه العصبية الممقوتة ، ووقع ضحية لأطماعه فى النبوة التى لم تكتب له بل ساقها الله لمن هو أهل لها .

إذن لم يكن أمية وثنياً .. وجعله البعض نصرانياً ومنهم المسعودى ، وقيل إنه اعتنق الدين الإسلامى ومدح الرسول ﷺ فى شعر يتشكك البعض فيه(٣) .

---

(١) الديوان ص ٦١ ، ص ٦٢
(٢) الديوان ص ٧٩
(٣) راجع الديوان ص ٧٠ ، وراجع الأغانى جـ ٤ ص ١٢٩ طبعة دار الكتب .

٣ — مكانته الشعرية :

يتميز شعر أمية بالعديد من الخصائص التى تفرد بها عن الشعر الجاهلى بعامة ، وقد كانت هذه الخصائص مثاراً لدهشة القدماء والمستشرقين والنقاد العرب المحدثين .

ولننظر أولا إلى شعراء الطائف فى العصر الجاهلى ، فنراهم قلة قليلة ، وأشهرهم أمية ووالده (أبو الصلت بن ربيعة) وغيلان بن سلمة وكنانة بن عبد ياليل وذو الأصبع العدوانى وهو ليس ثقفياً كالشعراء السابقين ، ويضاف إلى هؤلاء بعض الشعراء المغمورين الذين لا يمثلون علامات بارزة فى رحلة الشعر بالطائف قبل الإسلام ، وقد قال الدكتور خفاجى: « أما بيئة الطائف الأدبية فإنها على أى حال لم تصل نهضة الشعر فيها إلى ما وصلت إليه فى نجد ، كان فيها شعراء وليس شعرهم بالكثير ، والسبب فى ذلك كما يرى ابن سلام هو قلة الحروب والخصومات بين أهل الطائف . وأنه إنما يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء ، وهذا هو السبب أيضاً فى قلة شعر قريش وأهل عمان ، ولم ينبغ فى الطائف سوى أبى الصلت ، وابنه أمية وهو أشعرهم وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل »(١) .

ظفر شعر أمية بحظ وافر من استشهادات الجاحظ فى كتاب (الحيوان) بصفة خاصة ، ولعله وجد فى ديوان أمية ما لم يجده عند أى شاعر جاهلى آخر ، فقد ذكر له شعراً عن الأرض والسماء ، وعن صور الملائكة وحملة العرش والشياطين ، وعند نطق الطير وسفينة نوح

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ١٩٢ ، ص ١٩٣ (بحث للدكتور خفاجى عن أمية بن أبى الصلت .

والديك والغراب والحمامة ، وعن إخراج الحيات من بيوتها وغيرها .
كما انتشل صاحب الجمهرة من زوايا النسيان — على حد قول بلا شير — قصيدة لأمية ذات طابع تقليدى ، وجعلها فى الطبقة الثانية من اختياراته ومطلعها :

عرفت الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحل بها قطينا
أذعن بها جوافل معصفات كما تذرى الململة الطحونا
وسافرت الرياح بهن عصراً بأذيال يرحن ويغتدينا(١)

وقد اتفقت هـــذه النونية مع معلقة عمرو بن كلثوم فى الفخر القبلى والوزن والروى وأكثر المعانى وسهولة الألفاظ ، وإن لم يتحقق من الشهرة لجمهرة أمية ما تحقق لمعلقة عمرو بن كلثوم .

ونقل لويس شيخو مجموعة من أقوال القدماء عن أمية ، ونذكر منها ما يأتى :

قال ابن قتيبة : « وعلماؤنا لا يحتجون بشىء من شعره لهذه العلة » ، ويقصد بهذه العلة أن فى شعره ألفاظاً مجهولة لا تعرفها العرب ، كان يأخذها من الكتب القديمة . وقال أبو عبيدة : « اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبى الصلت » ، وقال الكميت : « أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال » ، وقال الحجاج : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراس الكلام » .

وقال عنه لويس شيخو : « وهو شاعر مشهور من شعراء الطبقة

---

(١) جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ص٤٠٧ تحقيق على البجاوى : طبع دار نهضة مصر .

الثانية ، وقيل من الطبقة الأولى ، وكان من رؤساء ثقيف وفصحائهم المشهورين ، قرأ الكتب القديمة ، وتهذب أحسن تهذيب »(١) .

وتحدث عنه خير الدين الزركلي فقال : « .. شعره في الطبقة الأولى ، وعلماء اللغة لا يحتجون به لورود ألفاظ فيه لا تعرفها العرب »(٢) .
ونعجب من هذه الأقوال المتعاقبة التي تقول بأن شعره في الطبقة الأولى أو الثانية ، ثم تذكر أن علماء اللغة لا يحتجون به ! ويبدو أن جعل الشعر في طبقات كان وضعاً أو نظاماً هشاً ضعيفاً ، لم يلبث أن تهاوى على مر السنين . وحتى إذا اقتنعنا بكلامهم في جعل هذا الشعر في واحدة من الطبقتين المذكورتين فإن ما بين دفتي الديوان لا يؤيد هذا الرأي ، فإن أكثره قلق اللفظ سخيف النسج نابي القافية، إلا أن يكون الزمان قد عفى على أجوده »(٣) .

وتحدث عنه — ريجيس بلاشير — فقال : « وقد انتهى وجه هذا الشاعر ، الذي شوهته النزعات المذكورة إلى التحول بتأثير المد الأسطوري الذي تعاقب عليه ، لمعرفته لغة الحيوان ، ومحادثته الكائنات الخيالية ، وقدرته على التنبؤ ، وإذا ما جردت تلك الأخبار الأسطورية مما تراكم عليها ، فإن المعطيات الصحيحة عن أمية تبقى هزيلة »(٤) .

إن المراجعة الدقيقة والمتأنية لديوان أمية — بعد الاستهداء بمجموع

---

(١) كتاب شعراء النصرانية في الجاهلية جـ٢ ص ٢١٩
(٢) الأعلام جـ٢ ص ٢٣٠ طبعة دار العلم للملايين — بيروت — ط٦ عام ١٩٨٤ .
(٣) تاريخ الأدب العربي — أحمد حسن الزيات ص ٧٦ ، ٧٧ الطبعة الخامسة والعشرون .
(٤) تاريخ الأدب العربي — بلاشير ص ٢٣٦ ترجمة إبراهيم الكيلاني — دار الفكر بدمشق — الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) .

ما تسفر عنه الأقوال السابقة — تجعلنا نقول بكل ثقة إن شاعرنا فى الطليعة من شعراء الطائف (الثقفيين) ، وإن شعره متعدد الفنون والمسارب والموضوعات ، وإن أهم سمة لهـذا الشعر اشتماله على معالجة الأمور الغيبية ، ودعوته إلى الإصلاح الاجتماعى ، ونبذ العادات السيئة ، ومعالجته لطبائع الكائنات الأخرى سوى الأناسى ، وإن ألفاظه وأساليبه لا ترقى — فى مجموعها — إلى مستوى الأفكار والمعانى التى جاءت فيه ، وإن أهم العيوب التى خدش بها أمية حياء اللغة خروجه على نظام العرب فى صوغها وتأليفها حيث ضمن شعره العديد من الكلمات التى لم يتداولها الشعراء ، ولم تجر على ألسنة الأدباء .

وقد تميز أمية بالمحاولات التجديدية فى معانى الشعر ، والتى برزت فى الساحة النقدية فيما بعد العصر الجاهلى ... ولذا بقى أمية أشعر ثقيف وأشعر الشعراء فى منطقة الطائف بعامة .

٤ — خصائص شعره :

تميز شعر أمية بمجموعة من الخصائص نعرض لها فيما يأتى :

أولا : لقد تعـددت الموضوعات ، وكثرت الفنون التى عرض لها ، وإذا كان القسم الأكبر من شعره قد دار فى فلك القضايا الدينية والفلسفية التى انشغل بهـا ، فإن له شعراً كثيراً جعله للحديث عن الموضوعات الأخرى التى لهج بهـا بعض الشعراء ، كما تحدث عن موضوعات لم يتطرق إليها الكثيرون ، وبخاصة ما مثل لهـا الجاحظ فى كتابه (الحيوان) .

ولقد اختار محققا الديوان الموضوعات التالية ، وجعلاها أغراضاً لشعر أمية ، وهى : التأله والوصف والحكمة والمديح والرثاء والفخر والنسيب ، إلا أن تناول أمية لهذه الموضوعات وعرضه لها يختلف عن غيره

من الشعراء مما يجعل لفنه نكهة خاصة ؛ ولذلك سوف نعرض لأغراضه الشعرية فيما بعد ؛ لنكشف عن الأبعاد الحقيقية لملامح شعره .

ثانياً : تتباين الألفاظ فى ديوان أمية بين موضوع وآخر، فنجد أن أكثر الألفاظ فى شعره الدينى لا تصاغ على وتيرة واحدة بسبب كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية ، ولذلك أسقطوا الاحتجاج به ، وأنكروا على شاعر ثقيف حق التعريف لشدة مخالطته للأعاجم ، وإن كان عربياً صريحاً ، فقد كان يسمى السماء (صاقورة) و (حاقورة) ، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه إذا خسف ، ويسميه (الساهور) ، وكان يسمى الله — فى شعره الدينى أيضاً — (السلطيط) و(التغرور) ونحو ذلك ، وربما اقتبسها من الحبشية ، أو صاغها على أوزان تلك اللغـــة .

وقد قال ابن قتيبة : « وكان يحكى فى شعره قصص الأنبياء ، ويأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، ويأخذهـــا من الكتب المتقدمة ، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب منها قوله :

بآية قام ينطـــق كل شىء
وخان أمانة الديك الغراب

وكانوا يقولون : إن الديك كان نديماً للغراب ، فرهنه على الخمر ، وغدر به ، ولم يرجع وتركه عند الخمار ، فجعله (الخمار) حارسا . . .

ومنها قوله : قمر وساهور يسل ويغمد .

والساهور فيما يذكر أهل الكتاب : غلاف القمر يدخل فيه إذا كسف . . . ويسمى السماء فى شعره صاقورة وحاقورة وبرقع .

ويقول فى الله عز وجل :

هو السلطيط فوق الأرض مقتدر

. . . . وهذه أشياء منكرة ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة فى اللغة »(١) .

أما شعره غير الدينى مثل المدح والفخر والوصف وغيرها ؛ فإن ألفاظه تمتاز بالرقة والسهولة والخفة حسب طرائق شعراء القرى — على قلة الشعر فيهم — .

قال يمدح عبد الله بن جدعان :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى
حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالأمور وأنت قرم لك الحسب المهذب والسناء

كريم لا يغيره صباح عن الخلق السنى ولا مساء

فأرضك كل مكرمة بناها بنو تيم ، وأنت لها سماء(٢)

وقد اختلفت الآراء فى الحكم على القاموس اللفظى لشعر أمية ، فمن حكم على ألفاظه بالتفاهة والخروج على مقاييس العرب نظر إلى ما جاء فى ديوانه من أشعار دينية اشتملت على ألفاظ (مولدة) ومن حكم على ألفاظه الشعرية بالخفة والعذوبة نظر إلى ماجاء منها فى الموضوعات الأخرى ، وهكذا تتماوج وتتباين ألفاظه بين موضوع وآخر .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٤٦٧ ، ص ٤٦٨ تحقيق أحمد شاكر الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م .

(٢) الديوان ص ١٩

ثالثاً : اشتهر أمية بالمعانى الدينية التى اصطبغ بها شعره ، حيث وصف الله عزوجل ، وتحدث عن بعض الغيبيات مثل الجنة والنار والملائكة والحشر والحساب وذكر خلق السموات والأرض ، ونظم حوادث التوراة ، وأدخل فى شعره كثيراً من المعانى التى لم يألفها الشعراء ، ولم يعرفها العرب ، وكان مذهبه غير معهود فى عصره ، كما ذكر كثيراً من العجائب والقصص الخيالية والأساطير الخرافية ، وبسط فى هذا الشعر الدينى كثيراً من أحوال الآخرة وصفات الخالق . والخشوع له ، وأورد فى ديوانه ومن خلال هذا الشعر (الدينى) كثيراً من الحكم والأمثال ، والتى تدل على خبرة أمية فى الحياة ، وكثرة معارفه وتجاربه .

أما فى شعره غير الدينى فهو يسير فيه كما يقول الدكتور خفاجى : « على نهج الشعراء الجاهليين من صدق المعنى وبساطته وسذاجته مع تلون الثقافة فيه إلى حد ما ، لثقافة أمية الواسعة ، ومع البعد عن الخيال الكاذب ، والمبالغة المفرطة فيه »(١) .

وتتميز معانيه بالعمق والتنوع ، وتتلاءم مع محصوله الثقافى المشبع بالحكمة والفلسفة ، وسوف يكشف الحديث عن أغراضه الشعرية الأبعاد الحقيقية للتنوع فى المعانى الذى تميز به هذا الشاعر ، ولننظر إلى أهم الأفكار التى طرقها ، وتحدث عنها قال :

والأرض نوخها الإله طروقة للماء حتى كل زند مسفد
والأرض معقلنا ، وكانت أمنا فيها مقابرنا ، وفيها نولد(٢)

---

(١) أشعار الشعراء الستة ص ٢٠٤ .

(٢) الحيوان للجاحظ جـ٣ ص ٣٦٣ ، ص ٣٦٤ تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الثانية (الحلبى) .

وتحدث عن نطق الطير فقال :

فاسمع لسان الله كيف شكوله
عجب وينبيك الذى تستشهد
والوحش والأنعام كيف لغاتها
والعلم يقسم بينهم ويسدد (١)

كما أن الكثير من شعره يكشف عن ثقافته الواسعة التى وظفها فى خدمة معانيه وأفكاره ، فصاغها عميقة متنوعة فى مجموع شعره .

رابعاً : تعرض شعر أمية لموجات من النقد المتصل بقضية الانتحال، وسبق أن بينا رفض الكثيرين من القدماء للاستشهاد به ، لما فيه من ألفاظ لم يألفها العرب ، وقد اتضحت هوية هذا الشعر بعد أن جمع بين دفتى ديوان مطبوع .

وتحدث محققا الديوان فى إحدى طبعاته فقالا : « وهذه قضية تفاجئنا حين نطالع شعر أمية . فإن قصائده ليست كلها على وتيرة واحدة فمنها ماهو جزل متين رصين ، ومنها ما هو مهلهل متهافت ، والسبب فى ذلك يعود إلى أن هذه القصائد المتهافتة منحولة على أمية وليس بقائلها » (٢) .

وبنى المحققان رؤيتهما على ما فى الديوان من قرائن وبراهين كاشتماله على المعانى القرآنية مثل حديث ذى القرنين وأصحاب الكهف والرقيم وقصة نوح ، فضلا عما فى بعض قصائده من تهلهل وتفكك ، وألفاظ تجعل قائلها ممن عاش بعد القرن الخامس ، ومثلا للنحول الذى اشتمل

---

(١) المرجع السابق ج ٧ ص ٥٥
(٢) الديوان ص ١٠ ، ١١

على كلمات القرآن وبعض تراكيبه بقول أمية :

فقـال أعنى بابن أمى فإننى
كثير به يارب صل لى جناحيا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا
إلى الله فرعون الذى كان طاغيا(١)

وذكرا أن في ذلك إشارة إلى قوله تعالى : (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى ، أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)(٢) وقوله تعالى (اذهبا إلى فرعون إنه طغى)(٣) ، ولكنهما لم ينسفا شعره الدينى كله ، وحيث أنه قد بقى له شعر فى هجاء المسلمين والتعريف بهم ، فمن باب أولى أن يكون له شعر دينى فى غير ذلك .

وعرض أحمد حسن الزيات لموقف شعر أمية من النحل والوضع ، فقال : « ومذهب أبى الصلت فى شعره لم يعهد فى عصره ، فنحله العلماء ما جاء على شاكلته ، ولم يعرفوا قائله »(٤) .

وتحدث الدكتور شوقى ضيف عن شعر أمية ، وأكد على تسرب النحل إليه ، وذكر أنه يدور حول موضوعين أساسيين : حيث يتحدث فى أولهما عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون ، للاستدلال على وجود الله ، وعن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله :

---

(١) الديوان ص ١١
(٢) سورة طه (الآيات ٢٩ — ٣٢) .
(٣) سورة طه (الآية ٤٣) .
(٤) تاريخ الأدب العربى ص ٧٦

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبالْ
بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمَد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنـــور من الشمس المضيئة والهلال(١)

وذكر أنه يظن أن هذه الأشعار وما يماثلها مما نحل على أمية ... بينما يورد فى الموضوع الثانى قصص الأنبياء بحيث لا تفترق فى شىء عما جاء فى القرآن الكريم ، وبعد أن مثل له تحدث عنه فقال : « وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ فى عصور متأخرة عن الجاهلية .

وقد ذهب (هيار) يزعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم ، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ، ولما تورط فى هذا الخطأ البين ، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين ... »(٢) .

ولقد أورد الدكتور شوقى ضيف فى بداية حديثه عن أمية شعراً له يمتدح فيه عبد الله بن جدعان ، ويرثى — فى نموذج آخر — قتلى المشركين فى غزوة بدر .

ولكنه لم يحدد رأيه فى الحكم على هذا الشعر بالصحة أو النحل ، ويبدو أنه ارتضى لأمية بعض الأشعار من أمثال هذه النماذج ، والتى يقول فى إحداها مادحاً ابن جدعان :

عطاؤك زين لامرىء قد حبوته بخير ، وما كل العطاء يزين

---

(١) تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى — ص ٣٩٥ — دار المعارف بمصر الطبعة التاسعة ١٩٨١ م .
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٦

وليس بشين لامرىء بذل وجهه
إليك كما بعض السؤال يشين(١)

أما ما عداها فقد حكم عليه بالنحل كما سبق القول .

ويرى (بروكلمان) أن أكثر شعر أمية بن الصلت منحول إلا مرثية قتلى بدر ، والتى منع النبى ﷺ من إنشادها(٢) ورفض رأى (هيار) Huart فى أن شعره كان من مصادر القرآن الكريم مصداقاً لمقولة شوقى ضيف السابقة ؟ ذلك لأن الأشعار التى نظر إليها هيار قد نحلت لأمية فى عهد مبكر لا يتجاوز القرن الأولى للهجرة ....ولأن الأصمعى سماه شاعر الآخرة ، كما سمى عنترة شاعر الحرب ، وعمر بن أبى ربيعة شاعر العشق »(٣).

ويرى (بلاشير) أن القطع المتناثرة التى مدح بها أمية ابن جدعان ، والقصيدة المتناثرة التى رثى بها أمية قتلى بدر وغيرهما قريبة جداً من الطابع البدوى لشعراء الحجاز ، أى أنها يمكن أن تكون تعبيراً عن قدرات أمية،ويرى أن طائفة أخرى من القصائد والمقطوعات ذات أسلوب تافه أخرق محشوة بالغريب ، ومن الممكن أن يتسرب إليها الوضع أو الانتحال ويعبر عن مجموع رأيه الذى تابع فيه بعض المستشرقين فيقول : « وفى الواقع فإن المستشرق (تور آنده) كان على صواب حين اعتقد أن الأبيات الدينية التى وضعت باسم أمية بن أبى الصلت تضخيم غير موفق لأقوال القصاص الذين انطلقوا من عناصر قرآنية ، فليس — والحال هذه — فى مقدور تلك

(١) المرجع السابق ص ٣٩٤
(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان جـ ١ ص ١١٣
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٣

المقطوعات أن تستحضر، سواء بالأفكار أو بالأسلوب — وحتى من بعيد — شعراً دينياً ظل وجوده بالنسبة إلينا لغزاً — من الألغاز، وفى مقابل ذلك، فإن القطع ذات الطابع البدوى لقريبة جداً من شعر شعراء الحجاز فى الجيل ذاته»(١).

وبعد أن استعرضنا هذه الآراء المدعمة بالنقول المؤكدة لها، وبعد أن عايشنا أكثر القصائد والمقطوعات التى يضمها الديوان نستطيع أن نتجاوز الظن إلى اليقين مؤكدين على أن الأشعار الدينية التى نسبت لأمية قد دخلها نحل كثير، وبان عليها الوضع بصورة واضحة، ولكن تبقى الإشكالية قائمة: فليس كل هذا الشعر منحولا على الرجل، إذ لابد أن تكون له أصول رجع إليها القصاص والوعاظ عند وضعهم لما وضعوا فى نهاية القرن الأول الهجرى أو بعده، وليس من اليسير علينا فصل الصحيح من الزائف، إذ لم يكن الواضعون قليلى الخبرة بالدرجة التى ينكشف معها صنيعهم، ولكنهم نسجوا على منوال أمية. واختلط الصحيح بالزائف: وصار الاستشهاد بهذا الشعر الدينى أمراً غير مأمون الجانب ويحتاج لمزيد من التبصر والحيطة. على أن بعض هذه الأشعار وبخاصة ماذكرها القدماء، واستشهد بها الجاحظ وغيره تعبر عن المشاعر الفكرية والفلسفية التى اعتنقها أمية، وتكشف مضامينها عن معالم شخصيته وقد ذكرنا منها فى الصفحات السابقة ما يبرز المعالم والاتجاهات الملائمة لهذا الشاعر.

أما الأشعار الأخرى، والتى لم يعرض فيها للقضايا الدينية المختلفة فهى أشعار يسرى عليها مايسرى على الشعر الجاهلى بعامة مثل بعض القصائد

---

(١) تاريخ الأدب العربى — بلاشير ص ٣٣٨، ص ٣٣٩

التى مدح بها ابن جدعان ، ومثل القصيدة التى رثى فيها قتلى المشركين فى بدر .

فإذا توافقت الأفكار والألفاظ فى هذه الأشعار مع منهاج أمية فيمكن لنا أن نقبلها ، ونحكم على الشاعر من خلالها .

ومن الجائز أن يتسرب إليها الوضع أيضاً . ولكن النظرة المتأنية لهذا القسم تجعلنا نقبل عن قناعة أكثر ماقاله فيه ، مع أخذ الحيطة حول كل ماورد فى الديوان .

٥ — أغراض شعره :

إن المتتبع لشعر أمية يجد فيه الأغراض أو الفنون الآتية :

أولا : الشعر الدينى :

ويراد به القصائد والمقطوعات أو الأبيات التى نظمها فى النواحى الدينية ، ويشكل هذا اللون أكثر من نصف الديوان حيث حكى فيه قصص الأنبياء كما جاء فى التوراة(١) .

كما تحدث عن توحيد الله، وذكر يوم الحشر، والموت والفناء والملائكة وحملة العرش والشياطين إلى غير ذلك من الأشعار التى غلب عليها طابع التدين والتحنف .

يقول الزيات : « انصرفت قريحة أمية إلى المعانى الدينية ، فاشتهر بها أمره ، واصطبغ بها شعره فوصف الله وجلاله ، وذكر الحشر وأهواله، ونعت الجنة والنار والملائكة ونظم حوادث التوراة كخراب سدوم

---

(١) انظر الديوان ص ٢٠

وقصة إسحاق وإبراهيم »(١) .

ويلاحظ أن هذه المعانى وغيرها تعبر — فى معظمها — عن الحنيفية التى كانت سائدة قبل الإسلام ، وكان أمية واحداً ممن اعتنقوها ودعوا إليها ، بل إن هذه الدعوى قد اكتسبت أبعاداً جديدة من خلال شعره ، إذ كان يسعى فى سبيلها إلى نيل شرف النبوة، فأخذ يثقف نفسه ، ويوظف شعره فى التبشير بريادته الدينية . وكانت هذه الأشعار مستقاة - فى معظمها - من التوراة ، ومن بعض الأساطير التى انتشرت فى الحياة الجاهلية ، ولذا لم يجد المتأخرون صعوبة منذ القرن الثالث (الهجرى) فى أن ينظموا على هذه الأشعار ، وأن يضيفوا إلى القليل الذى قاله أمية كثيراً من عند أنفسهم ، ولذلك اختلط الصحيح بالزائف فى هذا الشعر ، وصرنا نقرأ شعراً دينياً لأمية (الجاهلى) فنجد فيه تأثراً كبيراً بالقرآن الكريم فضلا عن سهولة الألفاظ التى لاتتناسب مع أشعار الجاهليين على شاكلة قوله :

إذا قيل من رب هذه السما فليس سواه له يضطرب
ولو قيل رب سوى ربنا
لقال العباد جميعا كذب(٢)

وقوله :

يوقف الناس للحساب جميعا فشقى معذب وسعيد(٣)

وقوله :

ولا يوم الحساب ، وكان يوماً عبوساً فى الشدائد قطريرا(٤)

---

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٧٦
(٢) الديوان ص ٢٠ (٣) الديوان ص ٣٣
(٤) الديوان ص ٤٦

وقوله :

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

ولكن أعبد الرحمن ربى

ليغفر ذنبى الرب الغفور(١)

وقوله :

الحمد لله لاشريك له من لم يقلها فنفسه ظلما(٢)

ولعل القارىء يلحظ معى ملامح الوضع والانتحال على أكثر هذه النماذج التى ذكرتها ، حيث تتضح فيها خفة الوزن وسهولة اللفظ ، بالإضافة إلى ملاءمة معانيها للحياة الإسلامية فى العصر العباسى ، ولكن لابد أن يكون أمية قد قال قدراً كبيراً من الأشعار ذات المعانى الدينية والتى تعبر عن مذهب التحنف الذى سلكه فى حياته ، ولكن إشكالية النحل ستبقى فاردة أجنحتها فى سماء الشعر الدينى بكامله ، إذ لم نقدر على فصل الصحيح من الزائف ، وكل الاحتمالات مبنية على الرؤية الفردية والحدس النقدى .

ويستطيع القارىء أن يفرز صفحات الديوان ليجد شعره (المنحول وغيره) معبراً عن كثير من الدعوات التى احتفل لها أمية فى حياته ، ولكن مابين دفتى الديوان يؤكد على نوع من التدخل الخارجى ، فقد فرض ستار حول الأشعار التى عارض أمية بها الإسلام باستثناء قصيدته فى رثاء قتلى بدر من المشركين كما رأينا قصيدة يمتدح فيها رسول الله ﷺ ، مع أن علاقته بالإسلام لم تكن حميدة إلى الدرجة التى يقول فيها مثل هذه القصيدة ، ولذلك نجد أن هذا الشعر الدينى موزع فى أهليته بين أمية

---

(١) الديوان ص ٤٦ (٢) الديوان ص ٧٧

وبعض الشعراء (المولدين) في العصر العباسي تقريباً . ويقول الدكتور خفاجي : « ويظهر في شعر أمية الديني : الضعف الفني ، لصعوبة الكلام في أمور الدين ، ولأنه كان يعارض القرآن في بعض معانيه ، فعجز وضعف وخزي »(١) .

ثانياً — المدح :

يأتي هذا الغرض في المرتبة الثانية من حيث أهميته في شعر أمية وقد قال فيه الكثير الذي اتجه به إلى سيف بن ذي يزن وغيرهما . وله قصيدة في مديح الرسول ﷺ ثارت حولها الشكوك فقيل إنها منحولة .

ولم يقف شاعرنا على أعتاب الملوك ، كما لم نجده يتخصص في مديح قبيلة معينة ويبدو أنه سخر فنه للتكسب به من مديح ابن جدعان الذي كان واحداً من الأثرياء في مكة المكرمة .

ولقد تحدث أكثر الذين كتبوا عن شعر أمية عن الهمزية التي امتدح بها ابن جدعان ، وهي :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالأمور وأنت قرم   لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح   عن الخلق السني ولا مساء
فأرضك كل مكرمة بناها   بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوماً   كفاه من تعرضه الثناء

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٣٥٨

تبارى الريح مكرمة ومجداً   إذا ما الكلب أجحره الشتاء

إذا خلفت عبد الله فاعلم
بأن القوم ليس لهم جزاء

فأبرز فضله حقاً عليهم   كما برزت لناظرها السماء

فهل تخفى السماء على بصير
وهل بالشمس طالعة خفاء

بناة مكارم وأساة علم   دما وهم من الكلم الشفاء(١)

ولقد وصف ابن جدعان بالحياء والكرم وثبات الأخلاق الحميدة، وعراقة الأصل وكلها صفات متكررة على ألسنة الشعراء، ولكن القصيدة تتميز برقة الألفاظ ووضوح الأفكار وخفة الوزن وجمال العرض وروعة التعبير، وقد قال فى ابن جدعان أكثر من قصيدة، ولذلك احتل من شعره مالم يصل إليه ممدوح آخر.

كما اتجه إلى سيف بن ذى يزن بالمدح فقال:

جلبنا النصح تحمله المطايا   إلى أكوار أجمال ونوق

مغلغلة مرافقها ثقالا   إلى صنعاء من فج عميق

تؤوم بها ابن ذى يزن وتفرى
بطون خفافها أم الطريق(٢)

وأورد محققا الديوان قصيدة له فى مدح ابن ذى يزن، وقالا إن أكثر الرواة يروونها لأبيه، وبعضهم يثبتها لجده زمعة وأولها:

---

(١) الديوان ص ١٩

(٢) الديوان ص ٥٤، ص ٥٥

ليطلب الثأر أمثال ابن ذى يزن
في البحر خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقــد شالت نعامته
فلم يجد عنده بعض الذى سالا(١)

أما القصيدة التى قيل إنه مدح بها الرسول ﷺ ، فأولها :

لك الحمد والمن رب العباد أنت المليك وأنت الحكم
ودن دين ربك حتى اليقين واجتنبن الهــوى والضجم
محمداً أرسله بالهدى فعاش غنياً ولم يهتضم
عطاء من الله أعطيته وخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيرهم وفى بيته ذى الندى والكرم(٢)

والملاحظ أن موهبة أمية فى المدح لا ترقى إلى مرتبة الشعراء الكبار أمثال زهير والنابغة وغيرهما ، وإن تميز بأنه شاعر قروى عف اللسان لا يميل إلى المبالغة ، ولا يسرف فى الثناء ، ولعله كان يتجه إلى ممدوحيه وفى ذهنه المبادىء الحنيفية التى (تمذهب) بها طوال حياته .

ثالثاً : الوصف :

وهو فن واسع من فنون الشعر العربى ، وقد وظفه أمية لرصد حركة الحياة ومتابعة تطورها من حوله ، وامتد هذا الغرض إلى سائر الفنون الأخرى ، وإن كان دوره موجهاً إلى وصف الطبيعة بقسميها الصامتة والمتحركة كقوله عن الليل والنهار :

---

(١) الديوان ص٦٥ ، ٦٦ وراجع الأغانى جـ ١٧ ص ٣١٢
(٢) الديوان ص ٧٠ ، ٧١

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق
والخيط الأسود لون الليل مكموم(١)

وقوله فى وصف الفرس :

كميت بهيم الليل ليس بفارض
ولا بخصيف ذات لون مرقم(٢)

وقد تجلت مقدرته فى متابعة المظاهر الطبيعية كوصف المطر ودواب الأرض ، وطبقات الجو ، ومناحى الفضاء الواسع ، وامتدت موهبته إلى وصف النواحى المعنوية التى تمتد ببعض الأسباب إلى شعره الدينى .

ويلاحظ أنه كان مقلا فى وصف الفرس ، ولم يوظف فنه فى خدمة الناقة أو غيرها من وسائل الانتقال فى الجاهلية ، مع أنه كان تاجراً مرتحلا من الحجاز إلى الشام واليمن ، كما لم يكن شاعر حرب يصف وقائعها وآثارها ، وقد يكون ذلك بسبب أنه نشأ فى الطائف ، وهى قرية (أو مدينة) عربية لم تعرف المعارك القبلية الطويلة ، ثم إنه كان شاعر حب وسلام فلم يتلوث بيانه بتفجير نار الكراهية فى البيئة التى التصق بها وعاش فيها .

رابعاً : الفخر :

برز أمية فى هذا الغرض لمكانته فى قومه من جهة أبيه وأمه ، وقد جاء أكثر فخره مختلطا بغيره من الفنون كالمدح والرثاء باستثناء بعض القصائد والمقطوعات ، ونختص منها قصيدته (الجمهرة) ، وهى من أجمل شعره فى الفخر ، ويعد هذا الغرض من أبرز الأغراض الجاهلية لاتفاقه مع طبيعة الحياة فيها ، ومع ذلك فإن شعر أمية فيه قليل بالنسبة لغيره من الجاهليين الذين صالوا فيه وجالوا ، وربما يرجع هذا الإقلال

---

(١) الديوان ص ٧٧ (٢) الديوان ص ٧٦

إلى النزعة الدينية التى ملأت عليه حياته ، أما قصائده فى الفخر فلربما قالها قبل أن يتوغل فى الحنيفية التى امتلكت كيانه ووجدانه ، وصارت عقيدته التى أقر بها ودعا إليها : قال :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما
يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى(١)

وقال :

قومى إياد لو أنهم أمم ولو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والقط والقلم(٢)

ويتنوع الفخر فى شعر أمية بين القصيدة والمقطوعة والبيت الواحد حيث يفتخر فيها بنفسه ومكانته فى بيئته ، أو يفتخر بقومه (ثقيف) وبجذوره التى تضرب فى أعماق التاريخ ، وتعد (الجمهرة) أفضل قصائده فى الفخر ، وقد اختارها أبو زيد القرشى ؛ لتكون واحدة من (الجمهرات) التى وضعها فى الطبقة الثانية بعد (السموط) وهى قصائد الطبقة الأولى ، وأول قصيدة أمية قوله :

عرفت الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحل بها قطينا
وأذوتها حوافل معصفات كما تذرى الململة الطحينا
وسافرت الرياح بهن عصراً بأذيال يرحن ويغتدينا
فابقين الطلول مخيات ثلاثا كالحمائم قد بلينا(٣)

ولعلها تقترب فى مضمونها مع قصيدة عمرو بن كلثوم فضلا عن اتفاقهما فى الوزن والروى ، ويتأكد ذلك من خلال متابعتنا لأبيات الفخر فى قصيدة أمية التى يقول فيها :

(١) الديوان ص ٦١ (٢) الديوان ص ٧٧
(٣) الديوان ص ٨٤

ورثنا المجد عن كبرا نزار فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هاربينا
تنوح وقد تولت مدبرات تخال سواد أيكتها عرينا

بل يزداد التقارب بين المعانى والألفاظ فى القصيدتين للدرجة التى يقول أمية :

وأنا الشاربون للماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

وهو يتدنى (جداً) من بيت عمرو بن كلثوم الذى قال فيه :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

وإن كان لا يخفى على أحد طول نفس ابن كلثوم حيث جاءت معلقته فى مائة وواحد وعشرين بيتا(١) بينما جاءت بجمهرة أمية فى ثلاثين بيتا(٢) فهذه السعة فى قصيدة عمرو تتيح له أن يمتد فخره إلى نواح كثيرة لم تشملها أو تتطرق إليها قصيدة أمية .

خامساً : الحكمة :

ليست الحكمة غرضاً مستقلا بذاته ، بمعنى أنه لا توجد قصائد خاصة بهذا اللون الشعرى ، ولكننا عرفنا شعر الحكمة موزعا بين الأبيات ، كما يأتى فى مطالع القصائد أو فى أواخرها ، وقد تيسرت الإمكانات الفكرية لابن أبى الصلت لأن يكون واحداً من الحكماء الجاهليين بفضل معارفه الكثيرة ، واطلاعه على الكتب القديمة ومراجعته لثقافات الأمم الأخرى، فتهيأ إدراكه لقول هذا الشعر ، والإفضاء به من خلال كل الأغراض

---

(١) كما جاءت فى جمهرة أشعار العرب للقرشى من ص ٢٧٢ إلى ٣٠٠
(٢) كما جاءت فى الجمهرة أيضاً من ص ٤٠٧ إلى ٤١٢

الشعرية ، أو من خلال بعض المقطوعات الصغيرة خصيصاً لشعر الحكمة ، قال :

إن الغلام مطيع من يؤدبه ولا يطيعك ذو شيب بتأديب(١)

وقال :

وقد يقتل الجهل السؤال ويشتفى إذ عاين الأمر المهم المعاين

وفى البحث قدما والسؤال لذى العمى

شفاء وأشفى منهما ما تعاين(٢)

سادساً : الرثاء : يعد هذا الغرض من أكثر الفنون التى برز فيها أمية خاصة أنه الغرض الذى يخلو من الزيف ، ويتجه الحديث فيه إلى الماضى؛ لامتداح الأموات . وكانت هزيمة المشركين فى بدر وقتل العديد من رجالها مجالا كبيراً أمام أمية لكى يبكى عليهم مادام قلبه لم يعمر بالإسلام، وتعد قصيدته فى رثاء قتلى بدر من أشهر قصائد الرثاء فى الشعر العربى حتى إن الرسول أوصى بعدم روايتها ، وقد ذكرها ابن هشام ما خلا بيتين ، تعرض الشاعر فيهما للمسلمين ، ثم بكى أمية فى رثائه لبعض الرجال مثل عتبه ابن ربيعة وزمعة بن الأسود ، كما اتجه إلى نفسه فرثاها قبل موتها ، ومن شعره فى رثاء قتلى قريش يوم بدر :

ألا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى الممادح

كبكا الحمام على فروع الأيك فى الغصن الصوادح

يبكين حزنى مستكينات يرحن مع الروائح

أمثالهن الباكيات المعولات من النوائح(٣)

---

(١) الديوان ص ٢٠ (٢) الديوان ص ١٣

(٣) الديوان ص ٢٤

وقد احتفل المستشرقون بهذه القصيدة ؛ لأنها من وجهة نظرهم بع
عن الوضع والانتحال ، وكأنهم رأوا فيها تعبيراً عن الرأى الآ
(المعارض) للدعوة الإسلامية ، وهى فريدة فى اشتمالها على امتد
المشركين ، كما أنها من الشعر الذى عز وجوده بعد عصر التدوين ، و
رأى النقاد المحدثون من عرب ومستشرقين فى جزالة ألفاظها ووع
تراكيبها ما ينأى بها عن النحل ، فضلا عن رواية ابن هشام لها وتدو
فى كتابه .

سابعاً : الغزل :

تنتشر فى ديوان أمية بعض الأشعار التى تعبر عن أغراض أخر
ولكنه كان فيها مقلا قصير النفس ، ونذكر منها :

الغزل كقوله متغزلا بسلمى :

كأن المسك تخلطه بفيها   وريح قرنفل والياسمي
ألم تر أن حظى من سليمى   أمانى قد يرحن ويغتدينا(١

وقد افتتح بغزله بعض قصائده ، كما أن له قصيدة غزلية منها الب
السابقان ولكنه كان قصير النفس أيضاً فى هذا اللون ، حيث اتجه
إلى الشعر الدينى ، وغيره من الأغراض التى أثبت فيها شاعريته ور
من خلال قبيلته (ثقيف) .

(١) الديوان ص ١٥

الفصل الثاني

ذو الإصبع العدواني

(شاعر الحكمة والسلام)

١ ــ مسيرة حياته وشعره :

ينسب ذو الإصبع إلى قبيلة (عدوان) التي تسكن بقاياها في الطائف إلى اليوم ، مع أن تاريخها حافل بالوقائع المشهورة والأمجاد العظيمة ، وقد غلب لقب هذا الشاعر عليه ، فصار معروفا به ، وجهل الناس اسمه مع مروم الأيام والسنين . وذكر أبو الفرج الأصبهاني نسبه فقال : « هو حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة ... » ويمتد كما جاء في الأغاني إلى « قيس بن عيلان بن مضر بن نزار أحد بني عدوان وهم بطن من جديلة »(١) .

وقد لقب بذي الإصبع : « لأن أفعى نهشت إبهام رجله ، فقطعها ، فسمي ذا الإصبع . وقيل : إنه كانت له إصبع زائدة »(٢) .

وليس بين أيدينا من الحقائق الثابتة ما يشهد على نشأة هذا الشاعر العدواني الذي يرتبط بكتابنا من خلال قبيلته التي كانت تقيم في الطائف

---

(١) الأغاني جـ٣ ص ٨٩

(٢) شرح المفضليات للتبريزي ــ القسم الثاني ص ٧٣٥ تحقيق على البجاوي طبع دار نهضة مصر .

وضواحيها فى الجاهلية ، بل إنها كانت أسبق من ثقيف فى الحياة بها ، وقد ظلت القبيلتان تعيشان سوياً فى تلك المنطقة قروناً طويلة .

لم يذكر حرثان أو ذو الإصبع فى شعره القليل وقصائده ومقطوعاته المعدودة شيئاً عن زوجته ، مع أنه تحدث عن أبنائه ، وخاطبهم بجيد الشعر والنثر فقد روى صاحب الأغانى قصته مع بناته الأربع ، عندما أردن الزواج ، ولولا طول الخبر لذكرته ، وبخاصة ما تحدث به ذو الإصبع إلى بناته بعد زواجهن ، من حكم بليغة وأقوال مرسلة . ونفهم منها طيب العلاقة بين الرجل وبناته وزوجته التى كانت توصيه — فقط — بالموافقة على تزويج بناتها .

كما نقل أبو الفرج إلينا أيضاً وصية ذى الإصبع عند موته لابنه ، وهى من الوصايا التى تشهد بسمو الأخلاق عند كثير من الجاهليين . وتؤكد أن هذا الرجل من كبار الحكماء المجربين ، ومن أهل الأدب الذين ملكوا زمام الشعر والنثر . ويبدو أنه استفاد بخبرته وطول حياته فى صياغة هذه الوصية التى قالها عندما احتضر حيث دعا ابنه أسيداً ، وقال له : « يا بنى ، إن أباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته ، فاحفظ عنى :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بما لك واحم حريمك وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك ، ثم أنشأ يقول :

أأسيد إن مالا ملكـ ـت فسر به سيراً جميلا

آخ الكرام إن استطعـ ت إلى إخائهم سبيلا
واشرب بكأسهم وإن شربوا به السم الثميلا
أهن اللئام ولا تكن لإخائهم جملا ذلولا
إن الكرام إذا توا خيهم وجدت لهم فضولا
ودع الذى يعد العشيـ رة أن يسيل ولن يسيلا
أبنى إن المال لا يبكى إذا فقد البخيلا(١)

ولم تتوقف مسيرة الحكمة عند هذا البيت ، بل تواصلت حتى بلغت هذه القصيدة واحداً وعشرين بيتاً .

وإذا ما أعدنا النظر فى النص النثرى الذى ابتدأ به ذو الإصبع وصاياه وجدناه حريصاً على دعم العلاقة بين (أسيد) وسائر الناس من خلال الصفات الأخلاقية المتعددة كلين الجانب والتواضع وبسط الوجه والإيثار والكرم والسماحة وحماية العرض وإعزاز الجار ومساعدة المحتاج والإسراع فى النهضة وصون الوجه عن مذلة السؤال .

ويلاحظ أنه استعمل الأساليب الإنشائية التى تتلاءم مع الأبوة ، ومقتضى الحال الذى آل إليه الرجل فى آخر حياته ، كما استعمل الجمل القصيرة الموجزة ، وبذلك يسهل حفظها من قبل الناشئة وصغار المتعلمين. أما النص الشعرى فلا يختلف فى هدفه عن القطعة النثرية التى استهل بها هذه الوصايا ، كما لا يختلف أيضا من حيث الصياغة البديعة والجمل القصيرة والتعبير الإنشائى الجميل .

ويبدو أن الأدب الرفيع والأخلاق الفاضلة قد شملت أبناء شاعرنا

(١) الأغانى ج ٣ ص ٩٨ ، ٩٩

حيث روى أبو الفرج قطعة شعرية لإمامة بنت ذى الإصبع ترثى فيها قومها ، كما أن بناته جميعاً كن يعبرن عن رغباتهن فى الزواج من خلال الشعر مما يؤكد استفادة أهل ذى الإصبع بما فى جعبته من معارف وآداب .

ولقد استمر فى قول الشعر إلى آخر حياته الطويلة ، وبين أيدينا سبعة أبيات قالها لابنته (أمامة) عندما بكت لما رأته قد نهض فسقط وتوكأ على العصا ، وهى :

جزعت أمامة أن مشيت على العصا
وتذكرت إذ نحن م الفتيان

فلقبل ما رام الإله بكيده — إرما وهذا الحى من عدوان

بعد الحكومة والفضيلة والنهى — طاف الزمان عليهم بأوان

وتفرقوا وتقطعت أشلاؤهم — وتبددوا فرقاً بكل مكان

جدب البلاد فأعقمت أرحامهم
والدهر غيرهم مع الحدثان

حتى أبادهم على أخرامهم — صرعى بكل نقيرة ومكان

لا تعجبن أمام من حدث عرا — فالدهر غيرنا مع الأزمان(١)

ولقد امتدت حنكة ذى الإصبع إلى الشعر الذى يواسى فيه ابنته (أمامة) ويصبرها على حالته ، ويعطيها الأمثلة على شمول الفناء لكل السابقين ، ويوصيها بعدم التعجب ؛ لأن ما حدث له كان بسبب تأثير الدهر فيه ، ولا نجاة من هذا التغيير أو التأثير ، وهكذا تدعمت أخلاقياته

---

(١) المرجع السابق جـ٣ ص ١٠٨ ، ١٠٩

مع أبنائه فى شبابه ، وفى أخريات حياته ، وعبر عن ذلك فى العديد من المواقف .

وكان لذى الإصبع ابن عم يناصبه العداء فهمس إليه شاعرنا بما يسهم فى إطفاء نار الكراهية التى تملكته وأحاطت به فى أحد عشر بيتا رواها أبو الفرج ، ونقل مناسبتها عن أبى عمرو فقال : « قال أبو عمرو وكان لذى الإصبع ابن عم يعاديه فكان يتدسس إلى مكارهه ، ويمشى به إلى أعدائه ، ويؤلب عليه ، ويسعى بينه وبين بنى عمه ، ويبغيه عندهم شراً ، فقال فيه(١) : ثم ذكر الأبيات ومنها :

ياصاحبى قفا قليلا ... وتخبرا عنى لميسا
عمن أصابت قلبه ... فى مرها فغدا نكيسا(٢)
ولى ابن عم لا يزا ... ل إلى منكره دسيسا
دبت له فأحس بعـ ... ـد البرء من سقم رسيسا(٣)
إما علانية وإمـ ... ـا مخمرا(٤) أكلا(٥) وهيسا(٦)

ونلاحظ أن شعر ذى الإصبع فى هذا الموقف لم يكن فى مثل نماذجه السابقة حيث جاء المطلع متكلفا بهذا الغزل الذى لا يتلاءم مع المناسبة ، كما أن أكثر الألفاظ ثقيلة جافة .

وتمتد موجة الإصلاح التى ينشدها لتشمل قبيلته كلها ، ولم تعد

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .
(٢) النكيس : المريض (٣) الرسيس : أول الحمى
(٤) مخمراً : من أخمر الشيء إذا ستره .
(٥) الأكل الوهيس : الشديد
(٦) مجموع هذه الأبيات — كما وردت فى الأغانى — أحد عشر بيتاً.

فلسفته الاجتماعية — من خلال شعره — قاصرة على أبنائه وابن عمه ، فقد سعى بنفسه للتصالح ورأب الصدع بين بنى تاج بن يشكر وبنى عوف بن سعد ، وهما من عدوان ، ولكنهما لم ينصاعا حتى تفانوا وتقطعوا ، فقال ذو الإصبع :

ويا بؤس للأيام والدهر هالكا
وصرف الليالى يختلفن كذلكا

أبعد بنى تاج وسعيك فيهم
فلا تتبعن عينيك ما كان هالكا

إذا قلت معروفا لأصلح بينهم
يقول مريّ ولا أحاول ذلكا

فأضحوا كظهر العود حب سنامه
تحوم عليه الطير أحدب باركا

فإن تك عدوان بن عمرو تفرقت
فقد غنيت دهراً ملوكا هنالكا(١)

وهكذا نرى شعر ذى الإصبع موجهاً إلى الحكمة والحب والسلام ، فهذه الشواهد التى ذكرناها ، والأشعار الأخرى التى لم نذكرها تدور حول رؤية واحدة ، وتعبر عن فلسفة اجتماعية سامية بحيث لا تتناقض المواقف أو الأشعار مع بعضها ، وكم رأينا من الجاهليين من يدعو إلى السلام ونبذ الحروب فى موقف ثم لا يلبث أن يتجاهل ذلك من خلال دعوته للحرب وممارسة الظلم فى موقف آخر .

---

(١) الأغانى حـ ٣ ص ١٠٤

٢ — موضوعات شعره :

إن القصائد والمقطوعات التى لا تتجاوز فى مجموعها أصابع اليدين ، والتى قالها ذو الإصبع ، ونقلتها إلينا (الأغانى) و (المفضليات) وغيرهما يمكن أن تشكل بعض الأغراض الشعرية فى حدود هذا القدر المنقول إلينا ، وإن كنا نلحظ اشتمال القصيدة الواحدة على أكثر من غرض كما كان ينحو الجاهليون فى بعض أشعارهم . ويبدو أن نتاج ذى الإصبع كان فى مستوى متقارب بمعنى أن فنه لا يتمثل فيه الخط البيانى للتطوير مما يجعلنا نقول بحرص الشاعر على تنقيح شعره ، أو أنه لجأ إلى التخلص مما لم يعجبه أو يرضى عنه ، كما أنه من الجائز أن يكون شعره قد تعرض للتلف أو الضياع ، ولكن تلك الأمور لا تعدو أن تكون أموراً ظنية نفسر بها ظاهرة وجود مجموعة من القصائد والمقطوعات لشاعر متميز ، وفى درجة متقاربة من ناحية المعانى والأفكار والصياغة اللفظية .

وإذا التمسنا تدرجاً للموضوعات أو الأغراض فى هذا الشعر من حيث عدد الأبيات فسوف يأتى ترتيبها على النحو التالى :

(أ) الحكمة : عرفنا الحكمة فى أكثر النماذج التى مثلنا بها ، وسوف نلقاها فى أمثلة أخرى من مجموع هذا الشعر مما لم نذكره . ولعل أبرز نموذج للحكمة ما قاله متوجهاً به إلى ابنه (أسيد) حيث قدم القصيدة بقطعة من النثر نصح فيها ابنه ، وأوصاه بمجموعة من الأخلاق التى حرص الجاهليون عليها ، ومما قاله فى القصيدة المذكورة :

ودع التوانى فى الأمو ... ر وكن لها سلسلا ذلولا
وابسط يمينك بالندى ... وامدد لها باعا طويلا
وابسط يديك بما ملكـ ... ـت وشيد الحسب الأثيلا

واعـــزم إذا حاولت أمـ رآ يفرج الهـــم الدخيلا
وابـذل لضيفك ذات رحـ لك مكرما حتى يزولا(١)

إلى آخر الأبيات التى تبين ما يحرص عليه ذو الإصبع — فى حديثه لابنه — من التأكيد عليه بملازمة الأخلاق الحميدة، والتحلى بالصفات الجميلة ، فهذه النصائح تنم عن تجربة وممارسة من (الوالد) . كما لا يخفى أن النصيحة وليدة الحكمة ، بل إنهما — أى الحكمة والنصيحة — ينبعان من معين واحد ، ويصبان معاً فى نهر الحياة الواسع الكبير .

(ب) الفخر : كان الشعراء الجاهليون يفخرون بأنفسهم وبقبيلتهم ، وينوهون بشجاعتهم فى الحروب ، وبكرمهم فى حالة الإعسار ، وبعفوهم عمن أساء ، إلى غير ذلك من الصفات التى كانت محل إعجاب عند القدماء .

ونقدم نموذجاً من شعر الفخر ؛ لنرى فيه أسلوب ذى الإصبع فى هذا اللون الشعرى الأصيل ، قال :

إنكما صاحبى لن تـــدعا لومى ومهما أضع فلن تسعا
إنكما من سفـــاه رأيكما لا تجنبانى الشكاة والقـــذعا
إلا بأن تكذبا على ولن أود صديقاً ، ولم أنل طبعا
إن تزعما أننى كبرت فلم ألف بخيلا نكساً ولا ورعا
أجعل مالى دون الدنا غرضاً وما وهى مل أمور فانصدعا
أما ترى شكتى رميح أبى سعد فقد أحمل السلاح معاً(٢)

---

(١) المرجع السابق حـ٣ ص ١٠٠
(٢) شرح المفضليات حـ٢ ص ٥٧٤ وما بعدها

وقد شرح التبريزى قصيدتين لشاعر عدوان اختارهما المفضل الضبى فى (المفضليات) . وتعتبر هاتان القصيدتان من أفضل ماقاله ذو الأصبع وهما يمثلان شعر الفخر عنـــده أصدق تمثيل ، ومن قوله فى القصيدة الثانية :

كل امرىء راجع يوماً لشيمته
وإن تخالق أحيانا إلى حين

عندى خلائق أقوام ذوى حسب
وآخرون كثير كلهم دونى(١)

(ج) اللوم والعتاب : اتجه ذو الإصبع فى أكثر ماقاله من لوم وعتاب إلى قبيلته ، فقد كان له موقف من الحروب لم يستطع أحد أن يهتدى إليه ، أو يقتنع به المتحاربون فيها ، كما أن موقفهم من ابن عمه لم يستحق إلا اللوم والتقريع ، وكثيراً مااتجه بالحديث إليه حديثاً مباشراً ، أو من خلال فخره بنفسه أو عتابه للآخرين ، ونراه فى الأبيات التالية يلوم ابن عمه ، ويذكر ما كان بينهما ، قال :

لى ابن عم على ما كان من خلق
مختلفان فأقليـــه ويقلينى

أزرى بنا أننـــا شالت نعامتنا
فخالنى دونه بـــل خلته دونى

يا عمرو ألا تدع شتمى ومنقصتى
أضربك حيث تقول الهامة اسقونى

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب
عنى ، ولا أنت ديانى فتخزونى

---

(١) المرجع السابق ج٢ ص ٥٩٨ وما بعدها .

ولا تقول عيـالى يوم مسغبة
ولا بنفسك فى العـزاء تكفينى

فإن ترد عرض الدنيا بمنقصتى
فـإن ذلك ممـا ليس يشجينى

ولا يرى فى غير الصبر منقصة
وما سواه فإن الله يكفينى

لولا أواصر قربى لست تحفظها
ورهبـة الله فى مولى يعادينى

إذا بريتك بريـاً لا انجبار له
إنى رأيتك لا تنفك تبرينى(١)

وقد جاء اللوم والعتاب فى صورة رثاء من الشاعر لقومه على ما كان منهم من خلاف حول الحرب، والتقصير فى موقفهم من عمرو (ابن عم ذى الإصبع)، ويلاحظ أن الشاعر ابتدأ بعض قصائده بالغزل على عادة الجاهليين، فهو ليس غرضاً شعرياً قائماً بذاته، بل يتوسط به إلى غرض آخر، أو يتخذ مدخلا للموضوع الأصلى للقصيدة.

٣ — الإعجاب بشعره :

ترجم أبو الفرج الأصبهانى لذى الإصبع فى قرابة العشرين صفحة، وذكر فى هذه الترجمة أكثر من نصف ما قاله من شعر، كما كان حريصاً على أن يستكمل بعض القصائد.

وقد عرف به وتحدث عنه كثير من أصحاب كتب التراجم، ولكن

(١) المرجع السابق ج٢ ص ١٩١ وما بعدها

يبدو أن ما قاله ذو الأصبع أكثر مما وصلنا من شعره ، ويرجع ذلك إلى عدم وجود ديوان له يجمع فيه كل ما قاله من قريض ، ولولا أن هذه الكتب القديمة جمعت بين دفتيها هذا القدر من شعره لما وجدنا هذا المتبقى بين أيدينا ، والذى نعرف الرجل ، ونتحدث عنه من خلاله .

ذكر الأصبهانى موقفاً يكشف عن إعجاب عبد الملك بن مروان بشعر ذى الإصبع ، وتزداد قيمة هـذا الإعجاب إذا عرفنا أن عبد الملك كان أديباً ناقداً ، أما راوى هذا الموقف — كما جاء فى الأغانى — فهو عمر بن شبة الذى تحدث عما ظفر به معبد بن خالد الجدلى من الخليفة لحفظه قصيدة ذى الإصبع التى يقول فى أولها :

وليس الأمر فى شيء   من الإبرام والنقض
إذا أبرم أمراً خا   له يقضى ، وما يقضى(١)

كما أعجب المفضل الضبي بقصيدتين لذى الإصبع ، وجمعهما فى المفضليات بل إن التبريزى قد ذكر روايتين للقصيدة الأولى ، مما يؤكد إعجاب القدماء بهذا الشاعر الذى مات قبل الهجرة بخمسة وعشرين عاما ، وكان من المعمرين .

٤ — خصائص شعره :

(ا) يتصف شعر ذى الإصبع بالذاتية ، وهى ميل الشعر إلى الجانب الوجدانى ؛ وقد ظهر ذلك فى كل ما ذكرناه من شعر له سواء فى حديثه إلى أبنائه أم فى عتابه لابن عمه ، أم فى لومه لقبيلته ، أومن خلال المطالع

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٩٢ .

الغزلية التى كان يبتدأ بها قصائده ، على أن هذه الذاتية تنبع من الواقع ، وتنأى عن الخيال تمثيلا للحياة الجاهلية .

كما أن المعانى الشعرية مستقاة فى معظمها من البيئة الحضرية حيث كان يقيم آل عدوان بالطائف ، وهى واحدة من القرى المتحضرة .

(ب) تتسم المعانى بالسمو والرفعة والوضوح . وتعرض للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات ، وتنبذ العادات الضارة كالأحقاد والضغائن .

(ج) تتميز التراكيب بالسهولة والمتانة والأصالة .

(د) تبدو الملامح الجاهلية على ألفاظ الشاعر . من حيث الجزالة والملاءمة للبيئة والتفرد ، ولذلك جاء شعره متميزاً على شعر الكثير من أبناء عصره .

الفصل الثالث

شعراء آخرون

أولا — غيلان بن سلمة .

ذكر القدماء مجموعة من الأخبار عن غيلان بن سلمة وشعره ، وظهر منها أن ماكتب عنه يتجاوز موهبته المحدودة فى قول الشعر ، إذ لم نطالع له قصيدة طويلة على غرار الجاهليين من شعراء الطائف ، وأكثر ماذكر له عبارة عن مجموعة من المقطوعات الشعرية التى قالها فى مواقف مختلفة ، وجاء أكثر هذه المقطوعات فى كتاب الأغانى ، ولم يرد له شىء فى طبقات الجمحى الذى تحدث عن شعراء الطائف فى فصل موجز مستقل .

وهو : « غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك... » (١) ، ويصل نسبه إلى (قسى) وهو ثقيف .

وقد جمع بين قول الشعر والحكمة والخطابة والفروسية ، حيث شهد بعض المواقع القتالية بين الثقفيين وغيرهم ، وظفر فيها بالنصر ، وقال فى ذلك شعراً يسجل به شجاعته وبطولته وحماسة قومه . وتزوج عشرة نسوة منهن خالدة بنت أبى العاص التى أنجب منها ابنيه (عماراً وعامراً) .

أسلم غيلان بعد فتح الطائف ، وأسلمت معه نساؤه العشر ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتخير منهن أربعاً ويفارق سائرهن ، وجاء فى

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٢٠٠

هامش طبقات ابن سلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسله هو وعروة ابن مسعود الثقفي إلى جرش يتعلمان صنعة الدباب والضبور والمجانيق ، فلم يشهدا حنيناً ولا الطائف (١) . وتوفى فى آخر خلافة عمر بن الخطاب : « وكان قسم ماله كله بين ولده ، وطلق نساءه ، فقال له عمر : إن الشيطان قد نفث فى روعك أنك ميت ، ولا أراه إلا كذلك ، لترجعن فى مالك ، ولتراجعن نساءك ، أو لآمرن بقبرك أن يرجم كما يرجم قبر أبى رغال ، ففعل ... » (٢) .

وإذا كان غيلان قد أسلم فإن ما قاله من شعر لا يعبر إلا عن حياته الجاهلية بما فيها من حروب وتفاخر وبكاء وعلاقات ذات طبائع خاصة مع النساء .

فلقد ملته زوجته ، وتجنت عليه ، فأنكر أخلاقها ، وهددها بالطلاق قائلا :

يا رب مثلك فى النساء غريرة
بيضاء قد صبحتها بطلاق

لم تدر ما تحت الضلوع وغرها
منى تحمل عشرتى وخلاقى (٣)

(١) انظر هامش طبقات فحول الشعراء لابن سلام جـ ١ ص ٢٦٩ . بتحقيق محمود شاكر .

(٢) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٧٠ ، وقيل عن أبى رغال إنه هو الذى بعثته ثقيف مع أبرهة والفيل لهدم الكعبة ، فلما نزلوا المغمس بين مكة والطائف ، مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب (هامش الطبقات جـ ١ ص ٢٧٠) بتصرف .

(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٢٠٣

وقال فى انتصار ثقيف بقيادته على خثعم :

ألا يا أخت خثعم خبرينا
بأى بلاء قوم تفخرينا
جلبنا الخيل من أكناف وج
وليث نحوكم بالدار عينا
رأيناهن معلنة رواحا
يقتيان الصباح ومعتدينا(١)

وقد جمع غيلان — مثل أكثر الجاهليين — بين قول الشعر وقول النثر ، وروى له صاحب الأغانى وصية لأبنائه التقى فيها الضربان من القول ، فذكر فيما رواه عن السابقين : (لما حضرت غيلان بن سلمة الوفاة ، وكان قد أحصن عشراً من نساء العرب فى الجاهلية قال : « يابنى ، قد أحسنت خدمة أموالكم ، وأمجدت أمهاتكم ، فلن تزالوا بخير ما غذوتم من كريم وغذا منكم ، فعليكم ببيوتات العرب فإنها معارج الكرم ، وعليكم بكل رمكاء مكينة ركينة ، أو بيضاء رزينة فى خدر بيت يتبع ، أو جد يرتجى ، وإياكم والقصيرة الرطلة ، فإن أبغض الرجال إلى أن يقاتل عن إبلى ، أو يناضل عن حسبى ، القصير الرطل ، ثم أنشأ يقول :

وحرة قوم قد تنوق فعلها ... وزينها أقوامها فتزينت
رحلت إليها لا ترد وسيلتى ... وحملتها من قومها فتحملت(٢)

---

(١) المرجع السابق جـ ١٣ ص ٢٠٤

(٢) المرجع السابق جـ ١٣ ص ٢٠٥ ، ونسب البيتان فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ إلى عثمان بن أبى العاص (انظر هامش الأغانى جـ ١٣ ص ٢٠٥)

وتجلت مقدرة غيلان فى هذا النص السابق الذى جمع فيه وصيته لابنائه حول الزواج مستغلا خبرته فى هذا الجانب من خلال تعامله مع زوجاته العشر خاصة وأنه هدد بعضهن ، وطلق الأخريات قبل موته ، لولا أن تدخل عمر بن الخطاب وقضى بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه .

وظهرت حنكة هذا الشاعر الحكيم فى لقائه المشهود بكسرى الذى جاء بروايتين ، وفيهما أنه التقى به وسأله كسرى عن أحب أولاده إليه فقال : «الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يؤوب» وسأله عن طعامه وعن أشياء أخرى ، فأعجب به كسرى ، وأرسل معه من الفرس من بنى له قصرا بالطائف ، فكان أول قصر بنى بها .

وقال غيلان عند خروجه للقاء كسرى :

ولو رآنى أبو غيلان إذ حسرت
عنى الأمور إلى أمر له طبق
لقال رغب ورهب يجمعان معاً
حب الحياة وهول النفس والشفق
إما بقيت على مجد ومكرمة
أو أسوة لك فيمن يهلك الورق(١)

وقد اشتهرت ابنته (بادية) بالجمال المبهر حتى قال فيها هيت المخنث لعبد الله بن أمية : «إن فتح الله عليكم الطائف ، فإنى أدلك على بادية بنت غيلان ، فإنها تقبل بأربع ، وتدبر بثمان ، فسمعه النبى ﷺ فقال : «قاتلك الله لقد أمعنت النظر ، وقال : لا يدخلن هؤلاء عليكن ، ثم نفاه إلى روضة

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٢٠٦ — والورق : الفضة .

ـخاخ ، فقيل : إنه يموت بها جوعا ، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة ، يسأل الناس،(١).

قال غيلان شعره في عدة موضوعات منها : الفخر الذى طرق بابه أكثر الشعراء الجاهليين ، أما هو فقد جاء فخره بمدينته (الطائف) وبقبيلته (ثقيف) فضلا عن فخره بنفسه . ويلاحظ أن هذه الضروب من الفخر ذات هدف واحد ، فثقيف تسكن الطائف ، وغيلان فارس من فوارس هذه القبيلة ، وقد قال مفتخراً بمدينته :

حللنا الحد من تلعات قيس
بحيث يحل ذو الحسب الجسيم

وقد علمت قبائل جذم قيس
وليس ذوو الجهالة كالعليم

بأنا نصبح الأعـــداء قدما
سجال الموت بالكأس الوخيم

وأنا نبتنى شرف المعـــالى
وننعش عشرة المولى العديم

وأنا لم نزل لجأ وكهفا
كذاك الكهل منا والفطيم(٢)

وقال غيلان بعض المقطوعات الشعرية في الحماسة والحرب ، كتلك الأبيات التى تغنى فيها بانتصار ثقيف على بنى عامر بن ربيعة وهى :

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ج ٤ ص ١٦٣ مكتبة الكليات الأزهرية.
(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى ح ٤ ص ١٢

ودع بذم إذا ماحان رحلتنا
أهل الحظائر من عوف ودهمانا
القائلين وقد حلت بساحتهم
جسر تحسحس عن أولاد هصانا
والقائلين وقد رابت وطابهم
أسيف عوف ترى أم سيف غيلانا
أغنوا الموالى عنا لا أبا لكم
إنا سيغنى صريخ القوم من كانا
لا يمنع الخطر المظلوم بخمته
حتى يرى... بالعين من كانا(١)

كما أن لغيلان بعض المقطوعات التى بكى فيها على من مات من قومه كابنه (عامر) وأخيه (نافع)، ومما قاله فى رثاء ابنه عامر الذى مات بالشام فى طاعون عمواس، وكان يومئذ فارس ثقيف :

عينى تجود بدمعها الهتان
سحا وتبكى فارس الفرسان
يا عام من للخيل لما احجمت
عن شدة مرهوبة وطعان
لو أستطيع جعلت منى عامرا
بين الضلوع وكل حى فان(٢)

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٢٠٣

(٢) المرجع السابق ج ١٣ ص ٢٠٢

وهكذا وضح لنا أن غيلان بن سلمة لم يكن شاعراً فحلا ، بل كان مقلا ، وكان قصير النفس ، إذ لم يزد أي نص شعرى مما وصلنا له عن ثمانية أبيات .

وجاء شعره فى أكثر الفنون التى جار بها الجاهليون ، وهى الفخر والحماسة والرثاء ، أما ما قاله من غزل فلم يخرج عن حدود البيت أو البيتين اللذين يبدأ بهما موضوعة الشعرى .

وقد مالت ألفاظه إلى الخفة والرقة والسهولة ؛ لاقتراب حياته من تباشير الإسلام ، حيث تخلى الجاهليون والمخضرمون منهم بخاصة عن الألفاظ الجزلة والمعانى الحسية التى احتشد بها ديوان الشعر الجاهلى القديم .

ثانيا — كنانة بن عبد ياليل بن عمرو الثقفى .

حمل إلينا تاريخ ثقيف فى الجاهلية اثنين من الشعراء اسم كل منهما (كنانة بن عبد ياليل) . وقد خلط الناس بينهما كثيراً ، ولذلك فإننا نستهل الحديث عن الشاعر المشهور منهما بتفرقة بين الاثنين .

فالأول هو ربيعة بن عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم ابن ثقيف(١) ، ويعرف بكنانة بن عبد ياليل ، وهو شاعر فارس ذكر له الآمدى فى المؤتلف قوله :

إن المنية بالفتيان ذاهبة ... ولو تقوها بأسياف وأدراع
بينا الفتى يبتغى من عيشه سددا ... إذ حان يوما فنادى باسمه الداعى

---

(١) انظر هامش كتاب طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٦٠

لا تجعل الهم غلا لا انفراج له
ولا تكونن كوما ضيق الباع

ويعرف بابن الذئبة، والذئبة أمه(١).

وذكره المرزبانى، وقال إنه كان يمدح النعمان بن المنذر، ثم ذكر (كنانة) الثانى، وقال: «وأمرهما مشكل لاتفاق الأسماء واختلاف النسب والله أعلم»(٢).

أما الثانى، وهو المعنى بحديثنا هنا فهو: كنانة بن عبد ياليل بن عمرو ابن عمير بن عوف بن عقدة الثقفى، وهو ابن عم أبى محجن الثقفى الشاعر الإسلامى المشهور، ولم يقتصر أمره على الخلط بينه وبين (كنانة) الآخر، بل شهدت حياته اضطرابا آخر، فقد ذكرت كتب السير والتاريخ أنه «كان من أشراف ثقيف الذين قدموا على رسول الله ﷺ، بعد عوده من حصار الطائف، وبعد قتلهم عروة بن مسعود فأسلم وفيهم عثمان ابن أبى العاص»(٣).

وذكر بعضهم أنه قدم مع الوفد، وأسلموا جميعا إلا كنانة، وقد ترك الطائف، واتجه إلى نجران، ثم انتقل منها إلى بلاد الروم فمات فيها بعد السنة العاشرة من الهجرة كافراً، وكأنه استعظم أن يسوده رجل من قريش وهو الرسول ﷺ(٤).

---

(١) انظر المؤتلف والمختلف للآمدى (أول كتاب معجم الشعراء للمرزبانى) ص ١٢٠ نشر مكتبة القدس، الطبعة الأولى.
(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٥٣.
(٣) أسد الغابه لابن الأثير جـ ٤ ص ٥٠٠ طبعة دار الشعب.
(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٦.

وأرجح أن يكون كنانة هذا قد أسلم مع وفد ثقيف ؛ لأن أكثر المؤرخين والرواة قد قالوا بذلك ؛ كما أن شعره القليل الذى نقل إلينا لا يحمل فى مضمونه خروجا على إجماع الوفد ، ثم إن أباه كان من بين هذا الوفد ، وقد أسلم أيضاً ، ثم عاد إلى ثقيف فأسلمت كلها .

وذكر ابن هشام (فى السيرة النبوية) وغيره مثل ابن كثير (فى البداية والنهاية) أن كنانة ذكر قومه ، وافتخر بهم أمام الرسول ﷺ فى معرض رده وإجابته لكعب بن مالك فى هذه الأبيات :

من كان يبغينا يريد قتالنا فإنا بدار معلم لا نريمها
وجدنا بها الآباء من قبل ما ترى
وكانت لنا أطواؤها وكرومها
وقد جربتنا قبل عمرو بن عامر
فأخبرها ذو رأيها وحليمها
وقد علمت إن قالت الحق أننا
إذا ما أتت صعر الخدود نقيمها
لقومها حين يلين شريسها ويعرف للحق المبين ظلومها
علينا دلاص من تراث محرق كلون السماء زينتها نجومها
ترفعها عنا ببيض صوارم إذا جردت فى غمرة لا نشيمها(١)

وهكذا يتوافق كنانة بن عبد ياليل بن عمرو الثقفى مع شعراء الطائف فى افتخارهم بقبيلتهم (ثقيف) أكثر قبائل الطائف عدداً فى الجاهلية .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٣٥٨ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣٤٦ .

وذكر الجمحي في كتابه الطبقات كنانة من بين شعراء الطائف ، وإن لم يورد شيئاً من أخباره أو أشعاره .

ومن الشعر القليل الذى قاله كنانة ماذكره له أبو عبيد البكرى وفيه يفتخر بالطائف (أيضا) ويذكر فضلها ، قال :

كأن الله لم يؤثر علينــــا غداة تجزأ الأرض اقتساما
عرفنا سهمنا فى الكف يهوى لدى وج وقد قسم السهاما
فلما أن أبان لنـا اصطفينا سنام الأرض إن لنا سناما
أسافلها منازل كل حى وأعلاها لنا بلداً حراما(١)

وقد امتد الفخر القبلي عند كنانة إلى دعوته للعطاء ومد الخير إلى الأقارب ، وخص منهم ذوى الأرحام ، قال :

صلاة وتسبيح وإعطاء نائل وذو رحم تناله منك إصبع(٢)

وليس بين أيدينا ما يؤكد على تأصيل الشعر عند كنانة ، أو تجاوزه لهذه الأفكار التى قرأناها فى شعر نظرائه (الطائفيين) ويكفيه أننا ذكرناه فى عداد الشعراء المقلين .

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى ج ١ ص ٧٨ .
(٢) الموازنة للآمدى ج ٢ ص ١٦٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

ثالثاً — أبو الصلت الثقفي :

أبو الصلت بن ربيعة واحد من شعراء ثقيف في الجاهلية ، وقد جاءت إليه الشهرة من ابنه (أمية بن أبي الصلت) رغم أن ما تحت أيدينا من شعر لأبي الصلت لا يجعل منه شاعراً فحلا رغم ارتباطه بالطائف وحديثه عنها وافتخاره بها .

وقد أورد له ياقوت نموذجا شعريا يصف فيه الطائف وهو قوله :

نحن المبنون في وج على شرف
تلقى لنا شفعاً منه وأركانا
إنا لنحن نسوق العير آونة
بنسوة شعث يزجين ولدانا
وما وأدنا حذار الهول من ولد
فيها وقد وأدت أحياء عدنانا
ويانع من صنوف الكرم عنجدنا
منه ، ونعصره خلا ولذانا
قد دامت وأمست ماؤها غدق
يمشي معا أصلها والفرع أبانا
إلى خضارم مثل الليل متجئا
فوما وقضبا وزيتونا ورمانا
فيها كواكب مثلوج مناهلها
يشفي الغليل بها من كان صديانا
ومقربات صفون بين أرحلنا
تخالها بالكماة الصيد قضبانا(١)

وليس خافياً أن ما افتخر به أبو الصلت في الطائف لا زال أكثره

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٦١ ، ص ٣٦٢ .

قائماً إلى اليوم مثل القلاع الحصينة والفواكه المتنوعة والمناهل العذبة ـ كما افتخر بأخلاق (الطائفيين) .

وروى ابن سلام وابن قتيبة فى كتابيهما قصيدة لأبى الصلت يمدح فيها سيف بن ذى يزن ، ويشيد بالفرس الذين ساعدوه على تحرير اليمن من نير الحبشة ، وقد نظمت هذه القصيدة عام ٥٧٣ م والرسول ابن عامين(١) وأورد ابن سلام من هذه القصيدة سبعة أبيات أولها :

لله درهم من عصبة خرجوا ما إن ترى لهم فى الناس أمثالا

وزاد عليها ابن قتيبة إلى أن بلغت اثنى عشر بيتاً ، وأولها عنده :

لن يطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن
لجج فى البحر للأعداء أحـــوالا

ولم يقتصر رواية هذا الشعر على الكتابين المذكورين بل ورد فى كتب أخرى متعددة(٢) ثم رواها أبو الفرج على أنها لأمية بن أبى الصلت ، وليس لأبيه ، كما جاءت فى ديوان أمية وقيل إنها تروى لأبيه ، كما تروى لجده زمعة(٣) .

وقد وجد الدكتور طـه حسين فى هذه القصيدة من حيث إشادتها بالفرس ، واختلاف الرواة حول نسبتها لأمية أو لأبيه أو لجده كما يقول الديوان ـ ما يخدم رؤيته حول الشعوبية والانتحال .

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى عن أمية بن أبى الصلت وأبيه فى كتاب (أشعار الشعراء الستة الجاهليين) ص١٩١ .

(٢) مثل السيرة النبوية لابن هشام والحماسة للبحترى والأمالى للشجرى وغيرها .

(٣) ديوان أمية ص ٦٥

وأفاد بأن الموالى قد نهضوا بإنطاق بعض الشعراء شعراً فيه مدح الفرس وثناء عليهم وتقرب منهم ، قال :

« وهم أنطقوا شاعرا من شعراء الطائف بأبيات رواها الثقات من الرواة على أنها صحيحة لاشك فيها ، وهى أبيات تضاف إلى أبى الصلت ابن ربيعة ، وهو أبو أمية بن أبى الصلت المعروف »(١) .

وليس لنا من تعقيب على ما قاله طه حسين فإن قضيته أوسع من أن نتحدث عنها هنا ، وإن كانت لنا كلمة ، وهى أن القصيدة تشبه شعر أمية من نواح كثيرة ، وأولها الصياغة اللفظية التى قرأنا ما يشابهها فى شعره ، فضلا عن موضوعها الذى يقترب من توجهاته ؛ إذ أنه قد زار اليمن ، وتنقل بين ربوعه ، وتعرف على مشكلاته وقضاياه .

---

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص١٦٣ طبع دار المعارف .

الباب الثاني

شعراء الطائف في العصر الإسلامي

الفصل الأول

أبو محجن الثقفى

شاعر الخمر والفروسية

— ١ —

أبو محجن الثقفى هو شاعر ثقيف فى عصر صدر الإسلام ،وقد عرف بهذه الـكنية التى غلبت عليه ، حتى قيل إنه تسمى بها وكنيته أبو عبيد أما اسمه فقد اختلف فيه فقيل إنه : عمرو بن حبيب بن عمرو بن عوف الثقفى ، وقال أبو الفرج إن « اسمه عبد الله بن حبيب ... » (١) كما قيل إن اسمه (مالك بن حبيب) ، ونلحظ أنه معروف النسب ، أما اسمه فهو (عمرو) أو (عبدالله) أو (مالك) ولكنه اشتهر بأبى محجن .

وقد عرفت أسرته بالشرف والسيادة والثراء من أطرافها كافة ، وهو القائل :

قد يعلم الناس أنا من سراتهم إذا سما بصر الرعديدة الغرق (٢)

ولد أبو محجن فى مدينة الطائف ، ونشأ بها ، ولكن المصادر تضن علينا بتفاصيل حياته طفلا وشابا ،ثم تظهر شخصيته بارزة لامعة فى حصار الرسول ﷺ للطائف سنة ثمان من الهجرة بعد الانتصار على هوازن وحلفائها فى معركة حنين .

---

(١) ثم أكمل نسبة . . انظر الأغانى ح ١٩ ص ١ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) ديوان أبى محجن (صنعة أبى هلال العسكرى) نشر الدكتور صلاح الدين المنجد ص ١٦ طبع دار الكتاب الجديد — بيروت .

ولقد بذل أبو محجن جهداً كبيراً فى الدفاع عن مدينته إلى أن فك الحصار عنها ، وانتهى الأمر بقبيلته (ثقيف) إلى الإسلام فيما بعد. وكان أن أسلم معهم فى السنة التاسعة من الهجرة حيث قدم وفدهم على الرسول ﷺ فى المدينة المنورة .

ويبدو أن صحبة أبى محجن للرسول كانت قصيرة لم تتجاوز مرة أو مرتين روى فيهما بعض الأحاديث (١) ، ولم يتحقق له الجهاد تحت اللواء النبوى خاصة وأنه أسلم بعد تبوك، وهى آخر غزوة شهدها الرسول صلى الله عليه وسلم .

وليس فى حياة أبى محجن — بعد إسلامه — شىء ذو بال سوى ولعه بشرب الخمر واشتهاره بذلك فى غير مجاهرة أو إعلان ، ثم قويت إصلته بأبى بكر الصديق بعد وفاة الرسول ﷺ ، ومدحه بثلاثة أبيات ذكرها ابن عبد البر فى كتابه (الاستيعاب) .

ولقد تواصلت حروب المسلمين مع الفرس بعزيمة وثبات فى عهد عمر ابن الخطاب ، وانتدب الخليفة لهذه الحروب كثيراً من الثقفيين فأبلوا فيها بلاء حسناً، وكان منهم أبو محجن الذى هيأ نفسه للمشاركة فى موقعة الجسر إلى جانب فرسان ثقيف .وقد احتدمَ القتال فى هذا اليوم وأصيب من الفرس ستة آلاف ، ومع ذلك لم يكتب النصر للمسلمين ، واستشهد من ثقيف وحدها ثلاثمائة رجل منهم أبو عبيد الثقفى الذى كان أميراً على الجيش فى هذا اليوم ، واستشهد أخوه (الحكم) وقيس ابن حبيب (أخو أبى محجن) ، وقد تحدث شاعرنا عن بسالته .

(١) انظر كتاب (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) لعز الدين بن الأثير حـ ٦ ص ٢٧٦ طبعة دار الشعب .

وفروسيته فى هذا اليوم فقال :

إلى فتية بالطف نيسلت سراتهم
وغودر أفراس لهـم ورواحل
وأضحى أبو جبر خلاء بيوته
بما كان يعفوها الضعاف الأرامل
وأضحى بنو عمرو لدى الجسر منهم
إلى جامد الأبيات جود ونائل
وما لمت نفسي فيهم غير أنها
إلى أجل لم يأتها وهو عاجل
وما رمت حتى خرقوا برماحهم
ثيابى وجادت بالدماء الأباجل
وحتى رأيت مهرتى مزوئرة
لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل
وما رحت حتى كنت آخر رائح
وصرع حولى الصالحون الأماثل
مررت على الأنصار وسط رحالهم
فقلت لهم : هل منكم اليوم قافل ؟
وقربت رواحا وكورا ونمرقا
وغودر فى أليس بكر ووائل (١)

---

(١) الديوان ص ٣٠ وما بعدها .

وعاد أبو محجن من العراق . . لا إلى الطائف حيث يعيش أهله وذووه — وإنما إلى المدينة المنورة عاصمة الخلافة الإسلامية فى ذلك الوقت ، وكأنه تحاشى زيادة الشعور بالألم ، فابتعد عن الطائف ، لموت الكثيرين من أقربائه بالعراق فى حروب المسلمين مع الفرس ... وكيف تروق له الحياة فى مربع صباه بعد أن غاب عنه المبرزون من قومه ؟

ولم تهدأ نفسه بالمدينة فى ظل الفراغ القاتل الذى أمسك به ، فعاد إلى احتساء الخمر ، والتف حوله بعض القرناء الذى جاوره فى عبثه ومجونه ، ولكن أنى لهم ذلك . وقد كان الفاروق لهم بالمرصاد . . ؟ إذ لم يخف عليه صنيعهم ، خاصة وأنه يعرف أبا محجن منذ حصار الطائف ، عندما خاطبه عمر بما لا يرتاح له ، فقد ذكر الجاحظ ذلك ، إذ قال : « ولما قال أبو محجن الثقفى لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من حائط الطائف ما قال ، قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (إنما أنت ثعلب فى جحر ، فابرز من الحصن إن كنت رجلا) ! » (١) .

وقد أدمن أبو محجن شرب الخمرة فى المدينة حتى إن الفاروق أقام عليه الحد عدة مرات (سبعاً أو ثمانيا) وهو لا ينتهى ، ولم يستطع أبو محجن فى أثناء هذه المدة البسيطة أن يقطع صلته بالماضى ، فيقلع عن شرب الخمر ، ولكنه كان ضعيفاً أمامها ، كما قال الدكتور شكرى فيصل : « والحق أن حياة أبى محجن توشك أن تكون صورة واضحة لهؤلاء الذين دخلوا فى الدين الجديد ، وإنما ظل عالقاً فى نفوسهم شىء من أهوائهم المستحكمة وعاداتهم الأولى ، لم يستطيعوا فكاكا منها ولا انصرافا عنها ، ويشبه

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٣٠٣ تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الثانية (الحلبى) .

أن يكون أبو محجن كالمغلوب على أمره يود لو أنه انقاد إلى ما يأمره به الإسلام من الإقلاع عن الخمر غير أنه لا يملك ذلك من نفسه ، فقد كان ضعيفاً أمامها قاصراً عن مقاومة إغرائها والصبر عليها ، (١) .

ورأى عمر أنه يستحق النفي من الحجاز إلى جزيرة فى البحر يقال لها (حضوضى) لكثرة شربه الخمر ، وقد ذكر صاحب الأغانى سبباً آخر لهذا النفى ، وهو حبه لامرأة من الأنصار . وتحدث أبو الفرج عن ذلك فيما يرويه عن ابن الأعرابى فذكر ... « أن أبا محجن هوى امرأة من الأنصار يقال لها (شموس) ، فحاول النظر إليها بكل حيلة فلم يقدر عليها ، فآجر نفسه من عامل يعمل فى حائط (٢) إلى جانب منزلها ، فأشرف من كوة فى البستان فرآها فأنشأ يقول :

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها
حرج من الرحمن غير قليل
قد كنت أحسبنى كأغنى واحد
ورد المدينة عن زراعة فول

فاستعدى زوجها عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنفاه إلى حضوضى ، وبعث معه رجلا يقال له ابن جهراء قد كان أبو بكر رضى الله عنه يستعين به » (٣) .

وأعتقد أن شرب أبى محجن للخمر ، وحديثه عنها قد تجلا بصورة

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام للدكتور شكرى فيصل ص ٢٣٢ ، ص ٢٣٣ طبعة دار العلم للملايين ١٩٨٢ م الطبعة السادسة .
(٢) الحائط : البستان .
(٣) الأغانى حـ ١٩ ص ٢

رئيسية — فى إبعاده من الحجاز إلى الجزيرة المذكورة فى حراسة (ابن جهراء)، وقال الفاروق لهذا الحارس فيما يرويه أبو الفرج: «لاتدع أبا محجن يخرج معه سيفاً، فعمد أبو محجن إلى سيفه، فجعل نصله فى غرارة، وجعل جفنه فى غرارة أخرى فيهما دقيق له.

فلما انتهى به إلى الساحل، وقرب البوصى(١) اشترى أبو محجن شاة، وقال لابن جهراء: هلم تتغد ووثب إلى الغرارة، كأنه يخرج منها دقيقاً فأخذ السيف، فلما رآه ابن جهراء والسيف فى يده خرج يعدو حتى ركب بعيره راجعاً إلى عمر فأخبره الخبر»(٢)، ويقول أبو محجن فى ذلك:

الحمد لله نجانى وخلصنى
من ابن جهراء والبوصى قد حبسا
من يجشم البحر والبوصى مركبه
إلى حضوضى فبئس المركب التمسا
ابلغ لديك أبا حفص مغلغلة
عبد الإله إذا ما غار أو جاسا
إنى أكر على الأولى إذا فزعوا
يوما واحبس تحت الراية الفرسا
أغشى الهياج وتغشانى مضاعفة
من الحديد إذ ما بعضهم خنسا(٣)

وذكر أبو الفرج خبراً آخر فى تغريب أبى محجن، لا يختلف عن

---

(١) البوصى: ضرب من السفن.
(٢) الأغانى جـ١٩ ص ٢
(٣) المرجع السابق جـ١٩ ص١، ص٢ والديوان ص٣٤ ومابعدها.

الأول إلا فى شىء واحد وهو أن الحارس لم يكن وحيداً بل كان معه رجل آخر لقول أبى محجن :

صاحبا سوء صحبتهما صاحبانى يوم ارتحل
ويقولون : ارتحل معنا فأنادى : إننى ثمل
إننى باكرت مترعة مزة راووقها خضل(١)

ومهما يكن سبب النفى فإنه قد هرب من الحارس أو من الحارسين ، وأقبل إلى سعد بن أبى وقاص ، وهو يقاتل العجم ، فإن لديه الرغبة العارمة فى إشباع نهمه من الانتقام من الفرس الذين قتلوا أخوته وبنى عشيرته يوم الجسر : ولم يصمت عمر عما اقترفه أبو محجن أثناء ارتحاله للنفى ، فكتب إلى سعد بحبسه ، فحبسه ، وقيده فى القصر المطل على أرض القتال فى القادسية .

وتحدث ابن الأثير عن بلاء أبى محجن وجهاده مع سعد ابن أبى وقاص فقال : « فلما كان بعض أيام القادسية ، واشتد القتال بين الفريقين سأل أبو محجن إمرأة سعد أن تحل قيده وتعطيه فرس سعد البلقاء ، وعاهدها أنه إن سلم عاد إلى حاله من القيد والسجن ، وإن استشهد فلا تبعة عليه فلم تفعل ، فقال :

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا
وأترك مشدوداً على وثاقيا

إذا قمت عنانى الحديد وغلقت
مصارع دونى قد تصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة
فقد تركونى واحداً لا أخا ليا

(١) الأغانى جـ ١٩ ص ٣ — والديوان ص ٥٣

حبسنا عن الحرب العوان وقد بدت
وأعمال غيرى يوم ذاك العواليا

فلله عهد لا أخيس بعهده
لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا(١)

فلما سمعت سلمى(٢) امرأة سعد رقت له ، فخلت سبيله ، وأعطته الفرس ، فقاتل قتالا عظيما ، وكان يكبر ويحمل فلا يقف بين يديه أحد ، وكان يقصف الناس قصفاً منكراً ، فعجب الناس منه ، وهم لا يعرفونه ، ورآه سعد ، وهو فوق القصر ينظر إلى القتال ، ولم يقدر على الركوب لجراح كانت به ، وضربان من عرق النسا فقال : لولا أن أبا محجن محبوس لقلت (هذا أبو محجن . وهذه البلقاء تحته) فلما تراجع الناس من القتال ، وعاد إلى القصر ، وأدخل رجليه فى القيد ، فأعلمت سلمى سعدا خبر أبى محجن ، فأطلقه وقال : اذهب لا أحدك أبداً .

---

(١) يلاحظ الاختلاف بين رواية الأبيات هنا وبين روايتها فى الديوان وغيره من أمهات الكتب مثل طبقات فحول الشعراء ، والشعر والشعراء والأغانى .

(٢) هى سلمى بنت أبى حفصة ، والأصح أن ذلك كان من زبراء أم ولد سعد ، كما وردت فى طبقات فحول الشعراء ، فقد جاء بيت من الشعر بتاريخ الطبرى وهو :

ألا ليتنى والمرء سعد بن مالك
وزبراء وابن السمط فى لجة البحر

وسعد بن مالك هو سعد بن أبى وقاص ، وهذا دليل على صحة (زبراء) كما جاءت فى الطبرى وابن سلام (انظر الطبقات بتحقيق محمود شاكر جـ ١ ص ٢٦٨) .

فتاب أبو محجن حينئذ ، وقال : كنت آنف أن أتركها من أجل الحد ،(١) .

— ٢ —

لقد تحدث الأدباء والإخباريون عن بسالة أبي محجن في القادسية ، ولكن حديثهم لا يخرج في مجموعه عن جملة الأحداث السابقة ، والتي تتضمن ترك أبي محجن للقصر وركوب البلقاء ، وقتاله ببسالة ، وعودته بعد النصر إلى حيث كان مقيداً ، وتوبته من الخمر ، وعفو سعد عنه ، وكان قد أنشأ يقول بعد أن رجع إلى القصر (العذيب) الذي كان مسجونا فيه ، وأعاد رجليه في القيد :

لقد علمت ثقيف غير فخر
أنا نحن أكرمهم سيوفا

وأكثرهم دروعاً سابغات
وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا

وأنا رفدهم في كل يوم
فإن جحدوا فسل بهم عريفا

وليلة قادس لم يشعروا بي
ولم أكره بمخرجي الزحوفا

فإن أحبس فقد عرفوا بلائي
وإن أطلق أجرعهم حتوفا(٢)

أما موقفه من الخمر فقد قال إنه كان يشربها إذ كان الحد يقام عليه ،

---

(١) أسد الغابة ج ٦ ص ٢٧٦ ، ص ٢٧٧

(٢) الأغاني ج ١٩ ص ٦ والديوان ص ٤٣ وغيرهما مع الاختلاف في عدد الأبيات ، ومواضع بعض الكلمات .

فكأنه يطهر منها ، أما وقد سقط الحد عنه فلن يشربها أبداً ، وقال في ذلك :

إن كانت الخمر قد عزت وقد منعت
وحال من دونها الإسلام والحرج
فقد أباكرها صرفا وأمزجها
ريا وأطرب أحيـــاناً وأمتزج
وقد تقوم على رأسى منعمة
خود إذا رفعت فى صوتها غنج
ترفع الصوت أحيـــاناً وتخفضه
كما يطن ذباب الروضة الهزج(١)

وأقسم بأنه لن يشرب الخمر أبداً بعد أن أقلع عنها تجاوباً مع موقف سعد منه قال :

رأيت الخمر صالحة وفيهـا مناقب تهلك الرجل الحليما
فلا — والله — أشربهـا حيـاتى
ولا أسقى بها أبداً نديمـــا(٢)

وقد تحولت أشعار أبى محجن فى هذه الفترة إلى التعبير عن عاطفته الدينية التى يغمرها الإيمان والتوبة النصوح ، وصار يذم الخمر وينكرها بعد أن كان يهيم بها ويعشقها . والواضح أن جهاده فى القادسية كان حداً فاصلا بين الحياة اللاهية التى عاشها أولا ، والحياة الجادة الصادقه التى عاشها ثانياً .

---

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٨ والديوان ص ٥٠ وما بعدها .
(٢) الأغانى ج ١٩ ص ١٠ وزيادات الديوان ص ٥٣

انتقل أبو محجن للجهاد فى بلاد فارس ، فقد كان لبعض الثقفيين فيها جولات وصولات خاصة بعد عزل سعــــد عن الكوفة فى عام واحد وعشرين من الهجرة ، ولكن تاريخ أبى محجن غير معروف فى تلك الحقبة ، إذ تضن علينا الروايات بما يكشف عن سيرة حياته ، وتكتفى بعض المصادر بالقول بأنه توفى فى أذربيجان ، أو فى نواحى جرجان ، أو فى أرمينية فى عام ثلاثة وعشرين من الهجرة(١) ، بعد أن امتلأت حياته بالشعر والجهاد ، وبأحسن ما يمكن أن تملأ به ، وكفاه فخراً أن أشاد به سعد بن أبى وقاص فى اللقاء الحاسم بالقادسية ، وكانت خاتمته أن عاش غريباً ، ومات غريبا ، ولكن نهايته حركت بعض الأساطير التى أخذ بعض الناس يتحدثون عنها معتمدين على بيتين له من الشعر وهما : -

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى بالفـــلاة فإننى
أخاف إذا مت ألا أذوقها(٢)

وتذكر رواية الأغانى عن الهيثم بن عدى عمن مر بقبر هذا الشاعر فى أذربيجان ، أو فى نواحى جرجان ، فرأى قبره ، وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كرم وقد طالت وأثمرت وهى معروشة وعلى قبره مكتوب هذا قبر أبى محجن (الثقفى) وقد وقف المار بقبره يتعجب طويلا مما اتفق له حتى صار كأمنية بلغها »(٣) .

---

(١) ذكر الزركلى فى كتابه الأعلام أنه توفى عام ثلاثين من الهجرة (جـ ٥ ص ٧٦) .

(٢) الديوان ص ٢٣

(٣) انظر الأغانى جـ ١٩ ص ١٣

بل إن الخبر يزداد طرافة فى بعض المصادر فيذكر رواته أن شجرات الكرم تظلل قبر أبى محجن ، والفتيان يخرجون إليه بطعامهم وشرابهم فيتنزهون عنده ، ويتناشدون الأشعار (١).

— ٣ —

لقد تدارس النقاد والمؤرخون شعر أبى محجن ، فجمعه أبو هلال العسكرى مع أن أكثره من المقطعات الصغيرة كالتى يتغنى بها الشعراء أو يشدو بها الشوار ، وذكرت أكثر الكتب التاريخية والنقدية نماذج متعددة من هذا الشعر مثل (طبقات فحول الشعراء) للجمحى ، و(الحيوان) للجاحظ ، و(الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، و (الأغانى) لأبى الفرج ، و (العمدة) لابن رشيق وغيرها ، وبلغ الاهتمام بشعره إلى الخلفاء ، فذكر صاحب الأغانى ما دار بين معاوية وعبيد بن أبى محجن فقال : « دخل ابن أبى محجن على معاوية فقال له : أليس أبوك الذى يقول :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى
أخاف إذا مامت ألا أذوقها

فقال ابن أبى محجن : لو شئت لذكرت ما هو أحسن من هذا من شعره ، قال وما ذاك ؟ قال : قوله :

---

(١) انظر نهاية الأرب للنويرى حـ ٤ ص ٩١ (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) .

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته
وسائلى الناس ما فعلى وما خلقى

أعطى السنان غداة الروع حصته
وعامل الرمح أرويه من العلق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عُرُضٍ
وأحفظ السر فيه ضربة العنق

عف المطالب عما لست نائله
— وإن ظلمت — شديد الحقد والحنق

وقد أجود ومامالى بذى فنع
وقد أكر وراء المحجر البرق

والقوم أعلم أنى من سراتهم
إذ سما بصر الرعديدة الشفق

قد يعسر المرء حيناً وهو ذو كرم
وقد يثوب سوامُ العاجز الحمق

سيكثر المال يوماً بعد قلته
ويكتسى العود بعد اليبس بالورق

فقال معاوية : لئن كنا أسأنا لك القول لنحسن لك الصفد(١)، ثم أجزل جائزته ، وقال : إذا ولدت النساء فلتلد مثلك »(٢) .

---

(١) الصفد : العطاء .

(٢) الأغانى ج٩ ص ١٠ ، ص١١ — راجع الأبيات بالديوان ص ١٥ وما بعدها .

إن ديوان أبى محجن يقفنا على جوانب أخرى من شعره لم يتنبه لها أكثر المحققين الذين رأوا أن تجربته لا تتجاوز الحديث عن الخمرة والحرب فى حين أن له بعض الألوان الأخرى التى تكتمل بها موهبته الشعرية والتى تأصلت فى أواخر العصر الجاهلى، وتشعبت فى عهد الرسول ﷺ، ولذا رآه البعض واحداً من المخضرمين، فى حين أن السمة البارزة على شعره أنه واحد من أشهر الشعراء فى عصر صدر الإسلام.

(أ) لقد برز أبو محجن فى شعر الخمر سواء ماقاله يتغنى فيه بشربها، أو ماقاله يؤكد فيه توبته منها، وعزمه على هجرها وعدم العود إليها، وذكرنا له من اللونين مايؤكد صدق حديثه فيهما معاً، فهو صادق حين يتحدث عن شربه، وصادق حين يتحدث عن توبته وندمه، وقد أبعد عن الحجاز بسببها — على المشهور من أقوال المؤرخين — ولجأ إلى ابن أبى وقاص فى القادسية أملا فى الراحة، وحباً فى الجهاد، وكأنه انتظر منه سكوتاً على شربه، فرآه يشرب، فقال له: لتنتهين أو لأوجعنك ضرباً. فقال: لست تاركها لقولك أبداً. وبلغه أنه قال:

ألا سقنى ياصاح خمراً فإننى
بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم
وجد لى بها صرفاً لأزداد مأثماً
ففى شربها صرفاً تتم المآثم
هى النار إلا أننى نلت لذة
وقضيت أوطارى وإن لام لائم(١)

وكان أن حبسه سعد.. ثم احتدم القتال الذى انتهى بالنصر للمسلمين ووعده سعد بعدم إقامة الحد فكانت التوبة الصادقة من أبى محجن والتى أعلنها فى شعره صريحة مدوية.

(١) الديوان ص ٣٦، ٣٧

وقد ذكر أبو الفرج بعضاً من مواقف عمر بن الخطاب مع أبي محجن بسبب الخمر وهي تكشف عن الإصرار الذي يتبعه أمير المؤمنين في مقاومة المخالفين للشريعة الإسلامية ، وتكشف أيضاً عن تعلق أبي محجن بالخمر إلى الدرجة التي يرى فيها الحد الشرعي تطهيراً من الإثم مع الاستمرار في الشرب(١).

(ب) كان أبو محجن من الشعراء الفرسان والرماة المهرة ، وقد انعكست شجاعته على شعره فانطلق يغني بحماسته ويشدو بنضاله ، ولذا جاء أكثر شعره في صورة مقطوعات صغيرة تشبه إلى حد كبير تلك المقطوعات التي كان يتغنى بها فرسان الخوارج من أمثال عمران بن حطان وقطرى بن الفجاءة وغيرهما ، فتراه يتحدث عن بسالته (يوم الجسر) بالعراق ، وعن قدرته الحماسية ، وخبرته القتالية يوم الهروب من ابن جهراء ، أما بسالته يوم القادسية فحدث عنها ولا حرج ، حتى قيل إنه كان من أسباب النصر في أحد أيام هذه المعركة الفاصلة ، وقد افتخر أبو محجن بجهاده في شعر حماسي رصين .

إن أكثر ما جاء في الديوان عن القادسية يعبر عن شوقه إلى القتال فيها ، والدفاع عن الإسلام من خلالها ، ولكننا لم نجد في شعره ما يسجل جهاده أثناء القتال كالذي قرأناه عن حماسته يوم الجسر مثلا ، ويبدو أن أبا محجن بعد النصر في القادسية ، وبعد أن أشاد بإقلاعه عن الخمر قد قاطع الشعر أيضاً ، فلم نجد في ديوانه ما يسجل جهاده في بلاد فارس مع أنه قد عاش فترة طويلة(٢) عادة ما تكون خصبة في حياة الشعراء . ثم إنه قد جمع بين الحماسة والفخر للتلازم بين هذين اللونين ، حيث يفتخر

---

(١) انظر أحد هذه المواقف بالأغاني جـ ١٠ ص ١١ ، ١٢

(٢) ما بين سبع سنوات إلى أربع عشرة سنة .

الشعراء كثيراً بحماستهم فى القتال وطعناتهم للأعداء، وفى الأبيات الحماسية التى ذكرناها لأبى محجن فى الموقف الذى جمع بين معاوية وابنه (عبيد) قال فى عقب تلك الأبيات:

وقد أجود وما مالى بذى فنع
وقد أكر وراء الحجر البرق
وأهجر الفعل ذا حوب ومنقصة
وأترك القول يدنينى من الرهق(١)

وهكذا يأتى الفخر فى شعره مقروناً بالتعبير عن حماسته فى القتال وفروسيته أمام الأعداء، كما يتمدح نفسه — فى شعر الفخر — بحميد الصفات وهجر المعايب، وبذل العطاء، كما يفتخر برجال قبيلته الذين استحقوا المحامد، قال:

عمى الذى أهدى لكسرى جياده
لدى الباب منها مرسل ووقوف
عشيه لاقى الترجمان وربه
فداه فرداً والوفود عكوف(٢)

(ج) إذا كان أبو محجن قد برع فى أشعار الخمر والحماسة والفخر فإنه قال شعراً قليلا فى الغزل، وأورد فى ديوانه أسماء ثلاث نساء، يبدو أن قلبه قد تعلق بهن واحدة بعد أخرى، والأولى هى (شموس) تلك المرأة الأنصارية التى حاول النظر إليها بكل حيلة فلم يقدر عليها، فاخترع حيلة استطاع بها أن يشاهدها خلسة، وسبق أن ذكرنا ذلك، كما تعلق قلبه بأم يوسف، وهى أخت الحجاج بن يوسف، وذكرها فقال:

أنى تسدت نحونا أم يوسف ... ومن دون مسراها فياف مجاهل(٣)

(١) الديوان ص ٢١، ٢١ (٢) الديوان ص ٤٤
(٣) الديوان ص ٣٠

والثالثة هى ابنة الحبر اليهودى ، وذكرها فى أربعة أبيات انفرد بها الديوان ، على أننا لا نلاحظ فى غزل أبى محجن حرارة العاطفة وصدق الوجدان ، فإن ذكر هذه الأسماء لايجعل منه شاعراً غزلياً ، كما أن الأبيات الوجدانية التى جاءت بديوانه — من الأشعار التى تذكر عادة فى مقام الفخر الغزلى أو التجريب العاطفى .

(د) ولأبى محجن قصيدة فى رثاء أبى عبيد الثقفى من أحد عشر بيتاً وهى أطول ماقاله من قصائد الشعر ، وقد بدأها بالغزل بأم يوسف وسبق أن ذكرنا أكثر أبياتها ، وجاء فيها :

إلى فتية بالطف نيلت سراتهم	وغودر أفراس لهم ورواحل
وأضحى أبو جبر خلاء بيوته	بما كان يعفوها الضعاف الأرامل
وأضحى بنو عمرو لدى الجسر منهم	إلى حامد الأبيات جود ونائل

فهو يتحسر على أبى عبيد وعلى بقية المجاهدين الذين تغيرت الدنيا من بعدهم، وقد تحولت أبيات القصيدة من البكاء على من مات إلى الفخر الحماسى الذى يغلب على أشعاره .

— ٤ —

● لقد مجد المؤرخون فى شخصية أبى محجن الرجل الولوع بالشراب، وصاحب البلاء الحسن فى القادسية ، حيث تدور أشعاره حول هذين الموضوعين كما قال (بلاشير) فى كتابه (تاريخ الأدب العربى) ، ورأى أن فى مقطوعاته قيمة استحضارية أصلية للبيئة التى نشأ فيها ، وهنا تكمن ملامح الإجادة لدى هذا الشاعر المتفرد .

● يتميز شعره بالعذوبة والرقة والطلاوة التى أخذ الشعر العربى ينساب نحوها مع المد الإسلامى .

● كما تتضح فى أشعاره حرارة التوبة وصدق الإيمان، ولذلك فأبو محجن

من أبرز الشعراء في العصر الإسلامي الذين جاءت أشعارهم صورة معبرة عن حيواتهم ، وتتجلى في شعره مواقفه البطولية وفتوته السامية التي أبرزها مع ثقيف على حصن الطائف أولا ، ثم في معارك المسلمين مع الفرس في العراق ثانياً .

● كما يتميز شعره بأن أكثره قد جاء في صورة مقطوعات صغيرة ، وكأنه (بلاغات) عسكرية أو (قذائف) إيمانية تشبه الشعر الثائر الذي قرأناه لشعراء الخوارج في مرحلة تالية من العصر الإسلامي .

● أما ما نأخذه على أبي محجن فهو موقفه من الشعر بعد القادسية وبعد أن أعلن توبته من شرب الخمر ، فقد سكت عن قول الشعر ، وليس لدينا ما نفسر به هذا السلوك إلا أن يكون الزمن قد جار على ما قاله في تلك الفترة إن لم يكن قد لزم السكوت في بقية حياته ، ونجد المراجع التاريخية القديمة قد لزمت الصمت أمام هذا الغياب الشعري في سنوات أبي محجن الأخيرة ولم تقدم تفسيراً واحداً له في حدود المراجع التي اطلعنا عليها .

الفصل الثاني

محمد بن عبد الله النميري

شاعر الغزل في ثقيف

١ — مولده ومنشؤه ووفاته :

ذكر صاحب الأعلام نسب شاعرنا في هذا الفصل فقال عنه : « محمد ابن عبد الله بن نمير بن خرشة الثقفي النميري »(١) ، وقد اقتصر على هذه المجموعة من النسب ، ولم يصل بها إلى ماذكره أبو الفرج في الأغاني مثلا. وقد قيل عن النميري : إنه مولد(٢) ، مع معرفتنا لأصول نسبه من جهة أبيه ، وامتدادها في ثقيف ، وربما كانت أمه غير عربية ، أو أن يكون الحكم عليه بأنه مولد غير صحيح .

نشأ محمد بن نمير ، كما ذكرته بعض المراجع ، في الطائف ، ولم يكن يخرج منها إلا ليعود إليها ، وأتم حياته بها ، إلى أن توفي حوالى عام تسعين من الهجرة ، كما جاء في أعلام الزركلي .

ورغم أن النميري من أهل الطائف ، وهي واحدة في القرى العربية المتحضرة في عصره ، إلا أنه لم يجار شعراء المدن العربية الأخرى الذين بالغوا في الكشف عن مكنون أفئدتهم بصورة حسية ، وربما كان غزله

---

(١) الأعلام للزركلي ج ٦ ص ٢٢٠

(٢) المولد : من كان أحد أبويه غير عربي

قريباً — جداً — من شعراء أهل البوادى كما كان الحال فى بنى عذرة وبنى عامر، أى أننا نجد شاعراً حضرياً فى حياته، بدوياً فى شعره، غزلياً فى فنه ومذهبه، كما أنه قصر غزله على واحدة من فتيات الطائف، وهى زينب بنت يوسف أخت الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى التى أحبها وتعلق بها، وهكذا ارتبط النميرى فى حياته وشعره بمدينة الطائف، وبقبيلة ثقيف.

٢ — الغزل فى زينب بنت يوسف :

عاشت أخت الحجاج منعمة مرفهة، تشتو بمكة، وتصطاف بالطائف، وقال محمد بن عبدالله النميرى فيها شعراً شدا به المغنون، ورواه أبو الفرج وبما قاله فيها :

تشتو بمكة نعمة	ومصيفها بالطائف
أحبب بتلك مواقفا	وبزينب من واقف
وعزيزة لم يغذها	بؤس وجفوة ساحف
غراء يحكيها الغزا	ل بمقلة وسوالف(١)

وقد أحبها ابن نمير، وذكرها فى أكثر شعره، وهذا ما أحفظ الحجاج عليه، وكان بينهما من الأحداث ما ذكره التاريخ بأكثر من رواية، ولكن أقدم هذه الروايات ما ذكرها أبو الفرج، فقال : « قال مسلم بن جندب الهذلى — وكان قاضى الجماعة بالمدينة — : إنى لمع محمد بن عبد الله ابن نمير بنعمان(٢)، وغلام يسير خلفه يشتمه أقبح الشتيمة، فقلت : من

---

(١) الأغانى جـ٦ ص ٢٠٥

(٢) نعمان : هو نعمان الأراك، واد بينه وبين مكة نصف ليلة.

هذا؟ فقال : هذا الحجاج بن يوسف دعه فإنى ذكرت أخته فى شعرى فأحفظه ذلك»(١)، وإذا صحت هذه الرواية فإنها تتقدم بمدة كبيرة على بسط الحجاج يده على الحجاز للولاء الأموى ، ويبدو أن ابن نمير كان أسن منه ، ولكن مجريات الأمور قد تحولت — فيما بعد — لصالحه ، فانتقل من الحجاز إلى العراق .

أما النميرى فقد قال قصيدة روت أمهات كتب الأدب أكثر أبياتها ، وحوسب عليها من عبد الملك بن مروان ، ومن الحجاج فى مجموعة من الروايات التى تختلف فيما بينها حول ملابساتها ، ولكنها تتفق فى أنها كانت الشرارة الأولى التى أشعلت نار العداوة بين ابن نمير والحجاج وهما من ثقيف . ولعل أوفى ما قيل عن مناسبتها ما رواه الأغانى ، قال . «وكان يوسف بن الحكم اعتل علة فطالت عليه ، فنذرت زينب إن عوفى أن تمشى إلى البيت(٢) ، فعوفى فخرجت فى نسوة ، فقطعن بطن وج وهو ثلاثمائة ذراع ، فى يوم جعلته مرحلة لثقل بدنها ، ولم تقطع ما بين مكة والطائف إلا فى شهر . فبينا هى تسير إذ لقيها إبراهيم ابن عبد الله النميرى أخو محمد بن عبد الله منصرفا من العمرة . فلما قدم الطائف أتى محمداً يسلم عليه ، فقال له : ألك علم بزينب؟ قال : نعم، لقيتها بالهباء(٣) فى بطن نعمان، فقال : ما أحسبك إلا وقد قلت شيئا، قال : نعم، قلت بيتا واحداً وتناسيته كراهة أن ينشب بيننا وبين إخوتنا شر، فقال محمد هذه القصيدة ، وهى أول ما قاله »(٤) . وإننا نشك فى صدق الجملة

---

(١) الأغانى جـ٦ ص ١٩١

(٢) المراد : الكعبة

(٣) الهباء : موضع بنعمان بين مكة والطائف .

(٤) الأغانى جـ٦ ص ١٩٢

الأخيرة من المقولة السابقة ، فالقصيدة ، التى ذكرهـا أبو الفرج ، والتى سوف نختار بعض أبياتها لا تدل على أن قائلها شاعر مبتدئ ، وإنما تكشف عن قدرات شاعر متمرس كثر منه الصيال فى ساحة القريض .

ومن أبياتها قوله :

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت
به زينبٌ فى نسوة عطرات

وقوله :

يخبئن أطراف البنان من التقى
ويقتلن بالألحاظ مقتدرات

تقسمن لبى يوم نعمان إننى
رأيت فؤادى عارم النظرات(١)

جلون وجوها لم تلحها سمائم(٢)
حرور ولم يشفعن بالسبرات

فقلت يعافير الظباء تناولت
نياع غصون المرد مهتصرات

ولما رأت ركب النميرى راعها
وكن من أن يلقينه حذرات

فأدنين حتى جاوز الركب دونها
حجابا من القسى(٣) والحبرات

---

(١) عارم النظرات : شارد النظرات

(٢) السمائم : جمع سموم وهى ريح حارة أو حر النهار

(٣) القسى : ضرب من الثياب

فكدت اشتياقاً نحوها وصبابة
تقطع نفسى إثرهـا حسرات

فراجعت نفسى والحفيظة بعدما
بللت رداء العصب(١) بالعبرات(٢)

وقد أشعلت هذه القصيدة نار الحرب على النميرى ، وغضب لها الحجاج بعد أن سمع بها ، وكان عبد الملك حريصاً على تهدئة ثورته ، فكتب له يقول : « قد بلغنى قول الخبيث فى زينب ، فاله عنه ، وأعرض عن ذكره فإنك إن أدنيته أو عاتبته أطمعته وإن عاقبته صدقته » (٣) ويبدو أن هذه الكلمة لم تهدىء من ثورة الحجاج فتوعد النميرى ، وأضمر له العداء ، وقيل إن النميرى قد هرب إلى اليمن — بعد هذه القصيدة — ثم اشتاق إلى موطنه فاستجار أو استغاث بعبد الملك ، وأنشده بعض أبياتها . ولكن الهرب إلى اليمن — فيما أظن — لم يكن بعد قوله لهذه القصيدة ، وإنما كان فى أعقاب مواقف أخرى من قصيدة غزلية قالها أيضا فى زينب ، وروى أبو الفرج حوارين أو مساءلتين من الحجاج لابن نمير لا تختلفان إلا فى بعض التفاصيل البسيطة التى نلاحظها بين رواية وأخرى ، وجاء كل منها بعد قصيدة مختلفة عن الأخرى .

---

(١) العصب : ضرب من البرود

(٢) الأغانى ج ٦ ص ١٩٣ ، ص ١٩٤ ، وراجع الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٢٧ تحقيق محمد أبى الفضل والسيد شحاته طبع دار نهضة مصر .

(٣) الأغانى ج ٦ ص ١٩٤

وكان أبو الفرج قد ذكر هذه التلمئة وكتاب عبد الملك إلى الحجاج ، وأعقبها بالحديث عن هرب النميرى واستجارته بعبدالملك ، قال : « وهرب النميرى من الحجاج إلى عبدالملك واستجار به ، فقال له عبدالملك : أنشدنى ماقلت فى زينب فأنشده . فلما انتهى إلى قوله :

ولما رأت ركب النميرى أعرضت
وكن من أن يلقينه حذرات

فقال له عبد الملك : وماكان ركبك يا نميرى ؟ قال : أربعة أحمرة لى كنت أجلب عليها القطران ، وثلاثة أحمرة صحبتنى تحمل البعر . فضحك عبد الملك حتى استغرب ضحكا ثم قال : لقد عظمت أمرك وأمر ركبك ، وكتب له إلى الحجاج أن لاسبيل له عليه .

فلما أتاه بالكتاب وضعه ، ولم يقرأه ، ثم أقبل على يزيد بن أبى مسلم ، فقال له : أنا برىء من بيعة أمير المؤمنين ، لئن لم ينشدنى ما قال فى زينب لآتين على نفسه ، ولئن أنشدنى لأعفون عنه ، وهو إذا أنشدنى آمن ، فقال له يزيد : ويلك ! أنشده ، فأنشده إلى قوله :

تضوع مسكاً بطن نعمان إذ مشت
به زينب فى نسوة خفرات

فقال : كذبت والله ، ماكانت تتعطر إذاخرجت من منزلها ، ثم أنشده حتى بلغ إلى قوله :

ولما رأت ركب النميرى راعها
وكن من أن يلقينه جذرات

قال له : حق لها أن ترتاع لأنها من نسوة خفرات صالحات ، ثم أنشده حتى بلغ إلى قوله :

مررن بفخ رائحات عشية يلبين للرحمن معتمرات

فقال : صدقت ، لقد كانت حجاجة صوامة ما علمتها . ثم أنشد حتى بلغ إلى قوله :

يخمرن أطراف البنان من التقى ويخرجن جنح الليل معتجرات

فقال له : صدقت ، هكذا كانت تفعل ، وهكذا المرأة الحرة المسلمة ، ثم قال له : ويحك ! إنى أرى ارتياعك ارتياع مريب ، وقولك قول برى ، وقد أمنتك ، ولم يعرض له ، (١) .

وبناء على ما تقدم ، ومن خلال بعض الروايات يبقى الاحتمال الثانى ، وهو أن تكون هذه المخاطبة بعد هرب النميرى إلى اليمن واستجارته بعبد الملك ، أو أن يكون الحجاج قد كلف من أتى له به .

وقد وضح لنا من النص السابق البعد النقدى والمدى المعرفى لكل من عبد الملك والحجاج ، ووضحت أيضاً عفة الشاعر وشفافيته وابتعاده عن حسية الغزل وإباحيته التى غرق فيها بعض الشعراء الحضريين من أمثال عمر بن أبى ربيعة .

وكانت زينب قد تزوجت الحكم بن أيوب بن الحكم بن عقيل ، وهو شيخ كبير فخرجت معه إلى الشام ، ولما ولى الحجاج العراق استعمله على البصرة ، وانتقلت معه زينب ، وبقيت بالبصرة إلى أن قام ابن الأشعث بثورته ، فوجهها الحجاج مع حرمه إلى الشام خوفاً عليهن ، وبقيت به إلى حين مقتل ابن الأشعث حيث أرسل الحجاج كتاباً إلى عبد الملك بالفتح ، وكتب إلى زينب يخبرها بذلك ، وأعطيت الكتاب وهى راكبة على بغلة فى هودج ، فنشرته تقرؤه ، فنفرت البغلة من صوت قعقعة الكتاب فسقطت زينب عنها ، فاندق عضداها وتهرأ جوفها ، وماتت فى ذلك ، وعاد رسول الحجاج حيث أخبره بوفاة أخته .

وقد تأثر النميرى بكل هذه التحولات فى حياة حبيبته ، فحزن لرحيلها

---

(١) المرجع السابق ج ٦ ص ١٩٤ ، ص ١٩٥

من الطائف مع أنها تزوجت غيره ، وهاجت أحاسيسه ، ودمعت عيناه لهذا الفراق ، وقال فى ذلك شعراً وجدانياً مؤثراً نختار منه قوله :

طربت وشاقتك المنازل من جفن(١)
ألا ربما يعتادك الشوق بالحزن
نظرت إلى أظعان زينب باللوى
فأعولتها (٢) لو كان إعوالها يغنى
فوالله لا أنساك زينب ما دعت
مطوقة ورقاء شجواً على غصن
فإن احتمال الحى يوم تحملوا
عناك ، وهل يعنيك إلا الذى يعنى
ومرسلة فى السر أن قد فضحتنى
وصرحت باسمى فى النسيب فما تكنى
وأشمت بى أهلى وجل عشيرتى
ليهنئك ما تهواه إن كان ذا يهنى
وقد لامنى فيها ابن عمى ناصحاً
فقلت له خذ لى فؤادى أو دعنى(٣)

وبلغت هذه الأبيات زينب ، فبكت لها ، وقالت لخادمتها : « أخشى أن يسمع بقوله هذا جاهل بى لا يعرفنى ، ولا يعلم مذهبى فيراه حقاً»(٤) .

ولم يتوقف شجو النميرى لرحيل زينب على هذه الأبيات ، فقد هاجت

(١) جفن : اسم واد بالطائف
(٢) أعول الرجل : رفع صوته بالبكاء .
(٣) الأغانى جـ٦ ص١٩٦ (٤) المرجع السابق جـ٦ ص١٩٦ .

مشاعره لهذا الفراق ، وحزن لليوم الذى تركت فيه الطائف ، فقال :

أهاجتك الظعائن يوم بانوا بذى الزى الجميل من الأثاث

ظعائن أسلكت نقب المنقى تحث إذا ونت أى احتثاث(١)

وقد كان الشاعر شديد الحب ، ولم يبرد عشقه لها وغرامه بها ، حتى أن الحجاج تعقبه ، وأراد الإيقاع به ، وخشى يوسف بن الحكم (والد الحجاج) أن يؤذى ابنه النميرى ، فطلب من عبد الملك ألا يجعل للحجاج عليه سبيلا إبان حرب الزبير ، واستجاب الخليفة إلى ما طلبه يوسف بن الحكم ، وقال للحجاج : « إن محمداً النميرى جارى ، ولا سلطان لك عليه فلا تعرض له »(٢) .

ويبدو أن النميرى لم يكف عن التغزل بزينب طوال حياته وقد حزن لوفاتها ورثاها بأحر الشعر ، وبكى لموتها فقال :

لزينب طيف تعتريني طوارقه
هدوءا إذا النجم ارجحنت لواحقه

سيبكيك مرنان العشى يجيبه
لطيف بنان الكف درم مرافقه

إذا ما بساط اللهو مد وألقيت
للذاته أنماطه ونمارقه(٣)

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ٥ ص ٢٩٨ وزهر الآداب للحصرى جـ١ ص ١٧٤ مع اختلاف فى كلمات البيت الثانى .

(٢) الأغانى جـ ٦ ص ١٩٧

(٣) المرجع السابق جـ٦ ص ٢٠١

٣ — مع الحجاج :

نعود إلى ما لحق النميرىّ بسبب غزله لزينب ، فقد خاف من تهديد الحجاج ، وهرب إلى اليمن ، وركب بحر عدن ، وقال فى هربه :

أتتنى من الحجاج والبحر دوننا
عقارب تسرى والعيون هواجع
فضقت بها ذرعا وأجهشت خيفة
ولم آمن الحجاج والأمر فاظع
وحل بى الخطب الذى جاءنى به
سميع فليست تستقر الأضالع(١)

إلى آخر القصيدة التى تجمع بين الرغبة فى زينب والرهبة من الحجاج والشوق لثقيف وقد ، نقلت كتب الأدب أكثر من موقف جمع بين النميرى والحجاج منها ماكان بعد القصيدة التائية التى قيل إنها أول شعره ، ومنها ماكان بين الرجلين فى أعقاب عودة النميرى من اليمن ، وكان الحجاج قد طلبه فلم يقدر عليه ، وطال هربه واشتاق إلى وطنه ، فعاد ووقف على الحجاج ، وكان بينهما هذا الحوار الذى بدأه الحجاج فقال : إيه يانميرى ! أنت القائل :

فإن نلتنى حجاج فاشتف جاهداً

فقال : بل أنا الذى أقول :

أخاف من الحجاج ما لست خائفا
من الأسد العرباض(٢) لم يثنه ذعر

---

(١) المرجع السابق جـ٦ ص ١٩٩ ومعجم البلدان جـ١ ص ١٧٣.
(٢) العرباض : الأسد العظيم .

أخاف يديه أن تنـال مقـاتلى
بأبيض عضب ليس من دونه ستر

وأنا الذى أقول :

فها أنذا طوفت شرقاً ومغرباً
وأبت وقد دوخت(١) كل مكان
فلو كانت العنقاء منك تطير بى
لخلتك إلا أن تصـد ترانى

قال : فتبسم الحجاج وأمنه ، وقال له : لا تعاود ما تعلم وخلى سبيله»(٢) .

وقد أملى الخوف على النميرى هذا الشعر الذى لم يكن ليصدر منه حباً فى الحجاج — وهو من أبناء عمومته — وإنما قاله بسبب حبه لزينب ، وماجره عليه هذا الحب من المتاعب والآلام ، والتى كان أبرزها العداء المستحكم بينه وبين الحجاج ، ولم يقتصر العداء بين الرجلين عى هذا الموقف الأخير الذى اقترن بهرب النميرى إلى اليمن ، بل امتد لسنوات طويلة ، تلك السنوات التى تغنى فيها بحبه لزينب منذ أن فتح عينيه على رؤياها إلى أن توارى جسدها فى التراب .

٤ — أغراض شعره :

لقد قال النميرى جل شعره فى الغزل الذى يتقارب فى خصائصه مع شعر أهل البادية فى العفة والرقة والسلاسة ، ولذلك لم يعنف — فى كل

---

(١) دوخ فلان البلاد : سار فيها حتى عرفها ، ولم تخف عليه طرقها .
(٢) الأغانى جـ٦ ص ١٩٩ ، ص ٢٠٠

المواقف المتخذة ضده — على ما قاله فى زينب ، فقد دافع عنه والد الحجاج ، وتشفع له عبد الملك ، ثم تسامح معه ورضى لقوله الحجاج . ولم يتعرض لوصف محبوبته وصفاً حسياً بارزاً ، ولم يقل إنه التقى معها واجتمع بها كما قال امرؤ القيس أو عمر بن أبى ربيعة أو غيرهما فيمن أحبهن ، ثم إنه كان مخلصاً جداً ووفياً دائماً لزينب ، فقد تغزل بها منذ أن كانت قريبة منه فى الطائف ، ولم ينسها أو يغفل عنها عندما انتقلت إلى الشام أو العراق ... وعندما ماتت رثاها ، وبكى لفراقها الأبدى ، مع أنها تزوجت بغيره ، وابتعدت عنه ، والأهم من ذلك كله أنه حورب من أجلها ، وهرب بسببها . ويبدو أنه تمادى فى عشقه وإخلاصه فلم يتزوج ، ولم يبن عش حياته مع غيرها ، ولم تذكر لنا المصادر أن له زوجة أو ولداً ، وكأنه يذكرنا بعاشق الأندلس (ابن زيدون) ، وإن كانت أخت الحجاج لا تذكرنا — أبداً — بولادة بنت المستكفى بالله .

وقد ذكرنا قدراً كبيراً من شعره الغزلى ، ولم يبق من أبرزه وأشهره إلا ما نسب له ولغيره ، ولذلك نكتفى بما سبق اختياره .

وعندما ماتت زينب رثاها بأبيات تقدم ذكرها ، أما شعره فى الحجاج فقد جاء بعضه فى الخوف منه عندما حلت الخطوب على شاعرنا ، ولم يملك إلا الفرار لليمن ، والابتعاد عن مربع صباه ، أما البعض الآخر فقد مدحه به ، ومثلنا له أيضاً . ونؤكد على أن هذا الشعر الذى اتجه به للمدح لم يكن إلا تعبيراً عن خوفه من الحجاج أيضاً ، ولذلك لا يحسب فى ميزان الشاعر فالشعر الذى تمليه غريزة الخوف ليس له إلا التجاهل والنسيان .

ولو صدق (بروكلمان) ومن قال بأن للنميرى ديواناً مخطوطاً لأمكن التعرف على كل المناحى والأغراض المكملة لموهبة هذا الشاعر ، غير أنه

بعض الباحثين (١) قد اهتدى — بالبحث — إلى عدم وجود ديوان له ، ولذلك نقتصر فى كلامنا على أغراض شعره بما سبق بيانه .

٥ — خصائص شعره :

(أ) قدم محمد بن عبد الله النميرى مجموعة من القصائد والمقطوعات الشعرية التى جاء أكثرها فى لون شعرى واحد وهو الغزل ، أى أنه تخصص فى هذا اللون ، وأجاد فيه ، وعايش كل تجربة شعرية استلهمها فى فنه ، ولم يعزف إلا على وتر واحد هو الشعر الغزلى ، وليست له إلا معشوقة واحدة هى زينب بنت يوسف ، وهى شخصية حقيقية تواجدت فى عالم الواقع فضلا عما بينهما من قرابة ، وكانت هذه القرابة سبباً من أسباب التزام النميرى بالأصول والأعراف التى تفرضها المعايير القبلية — ولم يكن من اللائق — فى ظل ذلك ، ومن واقع البيئة الإسلامية التى يلتزم بها — أن يشهر بابنة عمه ، وأن يطعن كرامتها وكبرياءها ، خاصة وأنها من النساء الفضليات التى تحج وتعتمر ، وتفى بالنذر ، وتلتزم بتعاليم الدين .

(ب) وأهم ما يتميز به شعر النميرى هو الصدق الفنى ، وتصوير الواقع ، والارتباط بالبيئة ، وقد تجلى ذلك فى كل شعره ، وهو يؤكد هذه الخاصية ، كما يؤكد ما سبقتها : روى أبو الفرج ذلك فقال : « لما تأيمت عائشة بنت طلحة كانت تقيم بمكة سنــة وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف وقصر لها هناك فتتنزه فيه ، وتجلس بالعشيات ، فيتناضل بين يديها الرماة ، فمر بهـــا النميرى الشاعر ، فسألت عنه فنسب لها فقالت : ائتونى به ، فأتوها به .

فقالت له : أنشدنى مما قلت فى زينب ، فامتنع عليها وقال تلك ابنة

---

(١) هو الأستاذ عيضة بن عبد الغفور الصواط الذى جمع شعر النميرى فى فصل من كتابه (شعراء ثقيف فى العصر الأموى) طبع نادى الطائف الأدبى — أنظر ص ٩٠ من الكتاب المذكور .

عمى وقد صارت عظاماً بالية . قالت : أقسمت عليك بالله إلا فعلت . فأنشدها قوله :

* تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشت *

الأبيات . قالت : والله ما قلت إلا جميلا ، ولا ذكرت إلا كرماً وطيبا ، ولا وصفت إلا ديناً وتقى ، أعطوه ألف درهم . فلما كانت الجمعة الأخرى تعرض لها ، فقالت : علي بي فأحضر . فقالت له أنشدني من شعرك في زينب ، فقال لها : أو أنشدك من شعر الحارث بن خالد فيك ؟ فوثب مواليها إليه ، فقالت : دعوه فإنه أراد أن يستقيد لبنت عمه هات عما قال الحارث في ، فأنشدها :

ظعن الأمير بأحسن الخلق وغدوا بلبك مطلع الشرق

فقالت : والله : ما ذكر إلا جميلا ، ذكر أني إذا صبحت زوجا بوجهي غدا بكواكب الطاق ، وأني غدوت مع أمير تزوجني إلى الشرق ، وأني أحسن الخلق في البيت ذي الحسب الرفيع أعطوه ألف درهم واكسوه حلتين ، ولا تعد لإتياننا بعد هذا يا نميري »(١) .

كما تأكد ارتباط الشاعر ببيئته من ذكر بعض مواضعها في شعره ، وأنه لما تركها وذهب إلى اليمن لم يلبث أن اشتاق لها وعاد إليها مع احتمال تعرضه للأهانة والأذى .

(ج) تتجلى التعاليم الإسلامية في غزل ابن نمير ، فلم يخرج على البيئة الدينية في ذلك الوقت بما يلوث سمعته الأدبية ، ولذلك أشاد به وبشعره سعيد بن المسيب ، وقال بعد أن سمع شيئا له : « هذا والله مما يلذ استماعه »(٢) ، وجاء إنسان إلى ابن سيرين يسأله عن شيء من الشعر قبل

(١) الأغاني ج٦ ص٢٠٣ ، ص ٢٠٤ وراجع نهاية الأرب ج٤ ص٢٧٩ ، وكذلك ص ٢٨٠

(٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٧٤ ، والأغاني ج ٦ ص٢٠٣

صلاة العصر ، فأنشده بيتين لابن نمير ، وقام إلى الصلاة ، وإن أكثر ما تتجلى هذه التعاليم فى التائية التى قيل إنها أول ماقاله من الشعر .

(د) اعتنق النميرى مذهباً غزلياً لم يكن شائعاً فى بيئة الحجاز (المتحضرة)، ومنها الطائف ، وهى إحدى القرى الواقعة فيها ، وكان هذا المذهب جديداً أو متفرداً على الحياة الأدبية فى ذلك الوقت ، ويبدو أن الشاعر قد اتبع مذهب شعراء البوادى ، وإن اختلف الدافع لديه عنهم ، فإن التقاليد العربية والأعراف الإسلامية هى التى أملت عليه سلوكه ومذهبه فى الشعر والحياة .

(و) انعكس الاتجاه الغزلى عند ابن نمير على ألفاظه وقاموسه الشعرى فجاءت مفرداته سلسلة لينة رقيقة ، كما أن شعره من هذه الناحية يتوافق مع أشعار الحواضر العربية ، أما معانيه فلا تبعد كثيراً عن المعانى التى تجسدت أو تواردت فى بنى عامر أو بنى عذرة أو فى غيرهما من قبائل البادية . وإن اختلفت الدوافع التى سبقت الإشارة إليها .

الفصل الثالث

يزيد بن الحكم

شاعر ثقيف في الإسلام

١ — تحقيق نسبه وشاعريته :

ذكر أبو العلاء المعرى بيتين فى رسالة الغفران ليزيد بن الحكم ، وأولهما :

فليت كفافاً كان شرك كله
وخيرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

وثانيهما :

تبدل خليلا بى ، كشكلك شكله
فإنى خليلا صالحاً بك مقتوى

وقد أوردهما لتحقيق ضبط كلمة (الماء) فى البيت الأول وكلمة (مقتوى) فى البيت الثانى . وجاء البيتان فى قصيدة هذا الشاعر (يزيد بن الحكم بن أبى العاص الثقفى) تلك القصيدة الواوية التى جاءت فى الأمالى والأغانى وحماسة البحترى وخزانة الأدب ، ولكن شيخ المعرة قد ذكر اسم يزيد قبل إيراده للبيتين فقال : إنه يزيد بن الحكم الكلابى(١) .

---

(١) رسالة الغفران للشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى ص ٧٦ =

وقد أخطأ أو تعمد الخطأ فى ذلك حيث ذكر الاسم بهذه الكيفية، وقرنه بشعر ليزيد بن الحكم الثقفى ، ولم تتنبه بنت الشاطىء — لخطأ هذه النسبة . أما الأستاذ كامل كيلانى فكان خطؤه أكبر حيث ذكر الاسم كما قال المعرى (يزيد بن الحكم الكلابى) ثم عرفه فقال إنه : يزيد ابن الحكم الثقفى ، شاعر جاهلى ، من بنى كلاب بن ربيعة بن صعصعة، (١) ثم ذكر شعراً ليزيد ابن الحكم الثقفى ، وقال عنه إنه شاعر جاهلى مع أن صاحب الأغانى ذكر أن عمه أسلم فى فتح الطائف ، أما هو فقد عرضت عليه ولاية فارس فى زمن الحجاج ، وهكذا أخطأ المعرى أو تعمد ذلك ، وأخطأ كامل كيلانى ، ولم تتنبه بنت الشاطىء إلى تصحيح الخطأ تصحيحاً كاملا .

وقد غاب عنهم أن (يزيد بن الحكم الكلابى) شخص ذكر له أبو تمام شعراً فى الحماسة(٢) و (يزيد بن الحكم الثقفى) شاعر ثقيف وهو موضوع حديثنا ، وذكر المعرى اسم الأول ونسب إليه شعر الثانى ، وقال كامل كيلانى عن الأول بأنه شاعر جاهلى ، وأضاف إليه شعر الثانى .

وقد وضح لدينا — الآن — أن صحة الاسم المترجم له معنا هو (يزيد ابن الحكم الثقفى) ، وأن الشعر الوارد فى المصادر المذكورة هو شعره سواء ماذكره المعرى أوماذكره كامل كيلانى أوماذكرته الكتب الأخرى ذلك الشعر الذى قال عنه الأستاذ كامل كيلانى فى حواشيه الممتازة على

= تحقيق كامل كيلانى — طبع ونشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ورسالة الغفران تحقيق عائشة عبد الرحمن ص٢٤٥ — دار المعارف. الطبعة السابعة عام ١٩٨١ م .

(١) رسالة الغفران تحقيق كامل كيلانى ص ٧٦

(٢) انظر حماسة أبى تمام حـ ١ ص ٢٣١ شرح المرزوقى (هامش١) .

رسالة الغفران إن هذا الشاعر (يزيد بن الحكم الثقفى) أول من حلل النفوس وحللها تحليلا نفسياً ، لأنه تحدث عن حقد ابن عم له، وكيف كان يضحك أمامه فى الظاهر ، ويضمر الكراهية له فى الباطن ، فهذه الصورة من صور النفاق أبدع الشاعر (يزيد) فى كشفها من عالم الدم واللحم إلى عالم الواقع والعيان .

ويقول الأستاذ كامل عن هذه القصيدة : « وهى من أجمل الشعر العربى وأجوده وأدقه فى شرح النفوس وتحليلها مع براعة الأداء وقوة الشاعرية »(١) ، وقد تحدث فيها يزيد بن الحكم الثقفى إلى ابن عمه فقال(٢) :

تكاشرنى كرهاً كأنك ناصح
وعينك تبدى أن صدرك لى دوى
لسانك ماذى وغيبك علقم
وشرك مبسوط ، وخيرك منطوى
فليت كفافا كان خيرك كله
وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى
عدوك يخشى صولتى — إن لقيته
وأنت عدوى ، ليس ذاك بمستوى
تصافح من لاقيت لى ذا عداوة
صفاحا ، وعنى بين عينيك منزوى(٣)

---

(١) رسالة الغفران — تحقيق كامل كيلانى ص٧٧

(٢) ليزيد عدة قصائد يعاتب فيها أخاه (عبد ربه بن الحكم) وابن عمه (عبد الرحمن بن عثمان بن أبى العاص) .

(٣) رسالة الغفران ص ٧٧ وأمالى القالى ج١ ص ٩٦ ، ص ٩٧ — طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٥ م وغيرهما .

ولم تسلم هذه القصيدة التى أبدى كامل كيلانى إعجابه بها — لم تسلم ليزيد ، فقد روى صاحب الأغانى أن أبا عبيدة : «قال : أنشدنى أبو الزعراء — رجل من بنى قيس بن ثعلبة — لطرفة بن العبد :

تكاشرنى كرهاً كأنك ناصح
وعينيك تبدى أن صدرك لى جوى

قال (أبو عبيدة) فعجبت من ذلك ، وأنشدته أبا عمرو بن العلاء ، وقلت له : إنى كنت أرويه ليزيد بن الحكم الثقفى فأنشدنيه أبو الزعراء لطرفة بن العبد ، فقال لى أبو عمرو : إن أبا الزعراء فى سن يزيد ابن الحكم ، ويزيد مولد يجيد الشعر ، وقد يجوز أن يكون أبو الزعراء صادقا »(١) .

وقد كذب أبو الفرج رواية أبى الزعراء ، لأن العلماء من رواة الشعر رووا القصيدة السابقة ليزيد بن الحكم ، وأن هذا الشعر لا يشبه شعر طرفه ، وهو بيزيد أشبه ، كما أن له فى هذا المعنى عدة قصائد استدل أبو الفرج بأجزاء منها على ما قال .

ويكنى يزيد أبا خالد(٢) ، أما أمه فهى بكرة بنت الزبرقان بن بدر ، وكانت أول عربية ركبت البحر ، فأخرج بها الحكم وهو بتوّج(٣) فى فارس .

وقد ضنت الكتب والمراجع القديمة بالتفاصيل الحياتية ليزيد بن الحكم .

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٩٤

(٢) سمط اللآلى جـ١ ص٢٣٨ — دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت — الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) .

(٣) انظر الأغانى جـ ١٢ ص ٢٨٧

فلم تكشف لنا عن رحلته الاجتماعية مع الزوجة أو الأولاد ، ولذا لم نعرف مراحل نشأته أو مدة إقامته فى البصرة أو الطائف، أو غيرها من الحواضر الإسلامية ، ولم نعرف له إلا ثلاثة أبناء ذكرتهم المصادر القديمة من خلال حديثها عن شعره ، كما لا نعرف الحجة التى استند عليها الزركلى فى بيان العام الذى حدده لوفاته وهو مائة وخمسة من الهجرة ، أما قوله عنه بأنه « شاعر عالى الطبقة من أعيان العصر الأموى »(١) فهى عبارة (هلامية) تفوق المستوى المحدود الذى قبع فيه شاعر ثقيف ، ولا ترقى به إلى مستوى شعراء الطبقة الأولى أو الثانية مع الاعتراض على وضع الشعراء فى قوائم أو طبقات .

ولكن ذلك لا ينفى تميز يزيد وعزة نفسه ، ورفضه لقساوة السلطة فى القرن الأول الهجرى ، وله فى ذلك عـــدة مواقف تؤكد — فى مجموعها — قوة سريان الدم العربى فى عروقه وعدم خوفه من الحجاج ، وتجاوبه مع ثورة يزيد بن المهلب حيث كتب إليه بعد أن خلع يزيد ابن عبد الملك :

أبا خالد ، قد هجت حرباً مريرة
وقد شمرت حرب عوان فشمر

فإن بنى مروان قد زال ملكهم
وإن كنت لم تشعر بذلك فاشعر

ومت ماجداً ، أو عش كريماً فإن تمت
وسيفك مشهور بكفك تعذر(٢)

---

(١) الأعلام حـ ٨ ص ١٨١
(٢) المرجع السابق حـ ٨ ص ١٨١

وليزيد باع طويل فى الحكمة، وله قصيدة، منها هذا البيت المشهور:

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقد ذكر أبو الفرج عدة مواقف بين يزيد بن الحكم والحجاج ابن يوسف تمخضت أحداثها عن ثقة يزيد بنفسه، واعتداده بقومه، ورفضه لسلطان القوة الذى تذرع به الحجاج، مع أن الرجلين من أبناء الطائف، ومن قبيلة ثقيف، ويدينان بالولاء لبنى أمية، أما الموقف الأول فقد أنشد فيه يزيد ثلاثة نماذج شعرية فى الفخر والهجاء والمدح، حيث افتخر بنفسه، وهجا الحجاج، وامتدح سليمان بن عبد الملك، وروى أبو الفرج ذلك عن الخزامى فقال: «دعا الحجاج بن يوسف بيزيد بن الحكم الثقفى فولاه كورة فارس، ودفع إليه عهده بها، فلما دخل عليه ليودعه قال له الحجاج: أنشدنى بعض شعرك، وإنما أراد أن ينشد مديحاً له، فأنشده قصيدة يفخر فيها ويقول:

وأبى الذى سلب ابن كسرى راية
بيضاء تخفق كالعقاب الطائر

فلما سمع الحجاج فخره نهض مغضباً، فخرج يزيد من غير أن يودعه، فقال الحجاج لحاجبه: ارتجع منه العهد، فإذا رده فقل له: أيهما خير لك، ما ورثك أبوك أم هذا؟ فرد على الحاجب العهد وقال: قل له:

ورثت جدى مجده وفعاله
وورثت جدك أعنزاً بالطائف

وخرج عنه مغضباً، فلحق بسليمان بن عبد الملك ومدحه بقصيدته التى أولها:

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا (١)
إذا أقول صحا يعتـــاده عيـدا

ويقول فيها :

سميت باسم أمرىء أشبهت شيمته
عـدلا وفضلا سليمان بن داودا
أحمد به فى الورى الماضين من ملك
وأنت أصبحت فى الباقين محمودا
لا يبرأ الناس من أن يحمدوا ملكاً
أولادهم فى الأمور الحلم والجودا

فقال له سليمان : وكم كان أجرى لك لعمالة فارس؟ قال : عشرين ألفاً. قال : فهى لك على ما دمت حيا(٢) .

وتتأكد جرأة يزيد مـــع الحجاج فى موقف ثان رواه أيضاً صاحب الأغانى ، حيث قال الحجاج : صدق — والله — زهير بن أبى سلمى حيث يقول :

وما العفو إلا لامرىء ذى حفيظة
متى يعف عن ذنب أمرىء السوء يلجج

فقال له يزيد بن الحكم : أصلح الله الأمير ، إنى قد وثبت ابن عنبسة ببيت ، إنه لشبيه بهذا . قال : وما هو ؟ قال : قلت :

ويأمن ذو حلم العشيرة جهلة   عليه ، ويخشى جهله جهلاؤها

---

(١) معمود : هده العشق .
(٢) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٨٧ ، ص ٢٨٨

قال : فما منعك أن تقول أمثل هذا المحمد ابنى ترثيه به ؟ فقال : إن ابنى — والله — كان أحب إلى من ابنك »(١).

ونقل لنا التاريخ النقدى عدة مواقف تجلى فيها الإعجاب من بعض مشاهير الشعراء والأعيان لشعر يزيد ، فقد ذكر أبو الفرج ما روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال :

« كان شاعر ثقيف فى الجاهلية خيراً من شاعرهم فى الإسلام ، فقيل له : من يعنى أمير المؤمنين ؟ فقال لهم : أما شاعرهم فى الإسلام فيزيد بن الحكم حيث يقول :

فما منك الشباب ولست منه إذا سألتك لحيتك الخضابا

عقائل من عقائل أهل نجد ومكة لم يعقلن الركابا

ولم يطردن أبقع يوم ظعن ولا كلباً طردن ولا كلابا

وقال شاعرهم فى الجاهلية :

والشيب إن يظهر فإن وراءه عمراً يكون خلاله متنفس

لم ينتقص منى المشيب قلامة ولما بقى منى ألب وأكيس(٢)

ولسوف تكشف السطور التالية بما تحمل من فخر وحكمة ومديح وغيرها عن أحقية يزيد فى إمارته للشعر فى ثقيف إبان العصر الإسلامى .

---

(١) المرجع السابق حـ ١٢ ص ٢٧٩

(٢) المرجع السابق حـ ١٢ ص ٢٩٠ (لم يحدد عبد الملك أو أبو الفرج شاعر ثقيف فى الجاهلية كما أن الشعر المذكور ليس لأمية بن أبى الصلت) .

وذكر أبو الفرج موقفاً ثانياً مر فيه الفرزدق على يزيد بن الحكم الثقفي وهو ينشد فى المجلس شعراً فقال : «من هذا الذى ينشد شعراً كأنه من أشعارنا ؟ فقالوا : يزيد بن الحكم ، فقال : نعم ؛ أشهد بالله أن عمتى ولدته »(١)، ولعله يقصد أن شعر يزيد فى منزلة شعره، ولا يختلف عنه.

وجاء فى الأغانى موقف آخر التقى فيه جرير بن عطية (الشاعر المعروف) بالعباس بن يزيد بن الحكم فى مسجد اليمامة ، وسأله جرير عن نفسه ، وأجاب العباس بأنه رجل من ثقيف ، وتواصل الحديث بينهما ، واتضحت فيه معرفة جرير بأشعار يزيد ، ثم ترحم عليه ، وأنزل العباس بكبشين حتى قال أهل اليمامة ماانزل أحداً قبلك قط(٢).

ولعل فى هذه المواقف على اختلاف منازعها مايكشف عن شخصية يزيد سواء من ناحية أخلاقه بما فيها من سمو وكبرياء وعزة نفس،أو من ناحية أشعاره المتفردة التى تنبىء بالصدق وجزالة الألفاظ وتفرد المعانى وعمق الأفكار ، رغم أن النماذج التى بين أيدينا لهـــذا الشاعر قليلة ولا تجعل منه شاعراً من فحول الشعراء .

٢ — أغراضه الشعرية :

تنوعت الأغراض الشعرية فيما روى لنا من شعر يزيد بن الحكم ، وقد هتف بأكثر الألوان التى عرفها القدماء ، وإن لم يسعفه محصوله الشعرى فى أن يجسد الأبعاد الفلسفية لأكثر الأغراض المطروقة ، وتميز بقلة شعره فى الفنون المشهورة التى لهج بها غالبية الشعراء ، مثل

---

(١) المرجع السابق حـ ١٢ ص ٢٨٧

(٢) أنظر المرجع السابق حـ ١٢ ص ٢٩٢

المدح والغزل والهجاء ، وغلبت عليه أشعار الوعظ والنصح والتوجيه والعتاب ، وهى ألوان غير تقليدية لم يجنح إليها غير الحكماء وفلاسفة الشعراء . ونفتح ملف شعره لنجد قصيدة من أخلد قصائده — ذكرها أبو تمام فى حماسته — يعظ الشاعر فيها ابنه (بدرا) ويوجهه إلى الصفات الحميدة ، ويحذره من الدنايا والعيوب ، وقد تحدث إليه فقال :

يا بدر والأمثال يضـ ـربها لذى اللب الحكيم
دم للخليــــل بوده ما خير ود لا يدوم
واعرف لجارك حقـه والحق يعرفه الكريم
واعلم بأن الضيف يو ماً سوف يحمد أو يلوم
والنــاس مبتنيـــان محـ ـمود البناية أو ذميم
واعــلم بنى ، فإنه بالعلم ينتفع العليم
إن الأمـور دقيقها مما يهيج له العظيم(١)

ويلاحظ أن أشعار الوعظ والنصح والتوجيه تتميز بخفة الأوزان وسهولة الألفاظ ووضوح المعانى وبساطة الأفكار حتى يسهل تناولها للكثيرين . ونجد ابن الحكم يغلف نصحه وتوجيهه (غالباً) بأبيات الحكمة التى تعبر عن تجاريبه فى الحياة، أو يقدم أبياتها متتالية فى مقطوعة واحدة كقوله :

رأيت سخى النفس يأتيه رزقه
هنيئاً ولا يعطى على الحرص جامع

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى حـ ٣ ص ١١٩٠ وما بعدها .

وكل حريص لن يجاوز رزقه

وكم من موفى رزقه وهو وادع(١)

وتمتد الحكمة إلى سائر الأغراض الأخرى فنراها فى شعر الفخر والمدح والنسيب وغيرها ، كما تجمعت قدراته البيانية فى صوغ خمسة أبيات أوردتها مصادر الأدب ، يذكرها صاحب كتاب (شعراء ثقيف) مخرجة ومنسوبة إلى يزيد بن الحكم ، ومنها بيت مشهور سبق ذكره ، وهى تؤكد قدرة هذا الشاعر فى صوغ أبيات الحكمة ، قال :

ترى المرء يخشى بعض مالا يضيره

ويأمل شيئاً دونه الموت واقع

وما المال والأهلون إلا ودائع

ولا بد يوما أن ترد الودائع

فكل أماني امرىء لا ينالها

كأضغاث أحلام يراهن هاجع

وفى اليأس من بعد المطالع راحة

ويارب خير أدركته المطامع

أبى الشيب والإسلام أن أتبع الهوى

وفى الشيب والإسلام للمرء وازع(٢)

---

(١) نهاية الأرب للنويرى ج ٣ ص ٣٧٧ (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) .

(٢) انظر الأبيات فى كتاب (شعراء ثقيف) لعيضة الصواط ص٢٠٢، ص ٢٠٣ .

وتتجلى فى هذه الأبيات توجهات (يزيد) الإسلامية سواء من ناحية الألفاظ المقتبسة من القرآن الكريم ، أو من ناحية المعانى التى حض عليها ديننا الحنيف .

ونرى هذا الشاعر لم يكن يمدح رغبة فى التكسب كما هو الحال عند أكثر الشعراء ، وإنما كان يمدح عن حب ، واقتناع لمن يتوجه إليه بالمديح، فقد أحب سليمان بن عبد الملك الذى احتفى به بعد أن خرج مغضباً من عند الحجاج ، وقال لسليمان :

سميت باسم امرىء أشبهت شيمته
عدلا وفضلا سليمان بن داودا

أحمد به فى الورى الماضين من ملك
وأنت أصبحت فى الباقين محمودا

لا يبرأ الناس من أن يحمدوا ملكا
أولاهم فى الأمور الحلم والجودا (١)

وقد تغنى المغنون بأول القصيدة التى منها الأبيات السابقة لسهولتها ، وخفة وزنها ، واشتمالها على النسيب الملائم للغناء .

وذكر أبو الفرج ستة أبيات (كل ثلاثة فى مقطوعة) امتدح بها شاعرنا (يزيد) يزيد بن المهلب، وكل واحدة من المقطوعتين تتعلق بموقف جمع اليزيدين ، وجاءت الأبيات الثلاثة الأولى فى مدح يزيد بن المهلب حين خلع يزيد بن عبد الملك ، وتقدم ذكرها ، أما الثلاثة الأخرى فقد هتف بها يزيد بن الحكم بعد أن دخل على ممدوحه (يزيد بن المهلب) فى سجن الحجاج ، وكان يعذب ، فقال له :

---

(١) الأغانى حـ ١٢ ص ٢٨٨

أصبح فى قيدك السماحة والجو د ، وفضل الصلاح والحسب
لا بطر إن تتابعت نعم وصابر فى البلاء محتسب
برزت الجياد فى مهل وقصرت دون سعيك العرب (١)

ولا شك فى أن الجهر بهذا المدح داخل السجن جرأة تحسب لابن الحكم الذى لم يخف فى أن يمدح رجلا خارجاً على بنى أمية وخصماً للحجاج، ثم إن شعره اشتمل على وصف ابن المهلب بالسماحة والجود والصلاح والحسب والصبر والشجاعة، وقد ختمها بهذا التذييل الذى جعل فيه الممدوح مفضلا على سائر العرب.

وليزيد بن الحكم شعر عاتب فيه أخاه عبد ربه بن الحكم الثقفى وبدأه بقوله :

أخى يسر لى الشحناء يضمرها
حتى ورى جوفه من غمرة الداء (٢)

كما عاتب ابن عمه عبد الرحمن بن عثمان بن أبى العاص بقصيدة مطولة ذكرنا منها أبياتاً فى أول هذا الفصل ، وهو يكشف لهذين الرجلين — فيما اخترناه له — عن نفس محبة نقية تتخلق بمبادىء الإسلام ، وترفض الشحناء والكراهية .

أما الفخر فقد ساير فيه شعراء الطائف ، وبخاصة من كان منهم من ثقيف ، وهو إما أن يفتخر بنفسه ، ويعدد مآثره ، وإما أن يفتخر بقبيلته ، ويشيد بأسلافه على عادة الجاهليين ، وسيبين أيدينا — فيما سيأتى — نصان من بعض أشعاره ... في الفخر رواه الزجاجى فى أماليه الصغرى ، وذكرهما فقال : ورد يزيد .

---

(١) الأغانى حـ ١٢ ص ٢٩١
(٢) المرجع السابق حـ ١٢ ص ٢٩٥

ابن الحكم الثقفي من الطائف على الحجاج بن يوسف بالعراق، وكان شريفاً شاعراً ، فولاه الحجاج فارس ، فلما جاء لأخذ عهده قال له : يا يزيد ، أنشدنا من شعرك — يريد أن ينشده مديحاً له — فأنشده :

من يك سائلا عنى فإنى ... أنا ابن الصيد من سلفى ثقيف
وفى وسط البطاح محل بيتى ... محل الليث من وسط الغريف
وفى كعب ، ومن كالحى كعب ... حللت ذؤابة الجبل المنيف
حويت فخارها غوراً ونجدا ... وذلك منتهى شرف الشريف
نما فى كل أصيد لا ضعيف ... بحمل المعضلات ولا عنيف

فوجم الحجاج ، وأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله ، أحمده وأشكره ، إذ لم يأت علينا زمان إلا وفينا أشعر العرب .

ثم قال : أنشدنا يا يزيد ، فأنشأ يقول :

وأبى الذى فتح البلاد بسيفه ... فأذلها لبنى الزمان الغابر
وأبى الذى سلب ابن كسرى راية
فى الملك تخفق كالعقاب الكاسر
وإذا فخرت فخرت غير مكذب ... فخراً أدق به فخار الفاخر

فقام الحجاج مغضباً ، ودخل القصر ، وانصرف يزيد والعهد فى يده، فقال الحجاج لخادمه : اتبعه وقل له : أردد علينا عهدنا ، فإذا أخذته فقل له : هل ورثك أبوك مثل هذا العهد ؟ ففعل الخادم وأبلغه الرسالة ، فرد عليه العهد فقال : قل للحجاج : أورثنى أبى مجده وفعاله ، وأورثك أبوك أعنزاً ترعاها ! »(١) .

---

(١) أمالى الزجاجى ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ص ٢١٩ ، ص ٢٢٠ ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر عام ١٣٨٢ هـ الطبعة الأولى.

وتزيد حرارة هذا الفخر بمواجهة الحجاج به ، خاصة وأن أبا الفرج أورد رواية لهذا الموقف ، وبه بيت يهجو يزيد فيه الحجاج هجاء مراً لاذعاً. وسبق ذكره .

وقد تغزل شاعرنا بجارية مغنية فى خبر طويل ذكره صاحب الأغانى، وشك فيه حيث قال : « وأحسب أن هذا الخبر مصنوع » (١) ، إذلا يكتفى أبو الفرج برواية الأخبار بل يتفحصها ، ويدقق فيها . ويبدى رأيه فى مصداقيتها .

ووصف يزيد جارية فقال :

تشكو إذا ما مشت بالدعص أخمصها
كأن ظهر النقا قفف لها ظلف (٢)

كما استهل شعره فى مدح سليمان بن عبد الملك بمقدمة غزلية هام فيها قلبه بمحبوبة تسمى (أسماء) ، وقد ذكر أبو الفرج فى هذا المطلع أربعة أبيات أولها :

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا
إذا أقول صحا يعتاده عيدا (٣)

ولكن ابن الحكم لم يكن من الشعراء الذين أطالوا القول فى النسيب، ولم ينقل عنه أنه قال قصيدة غزلية طويلة يكشف فيها عن مكنون نفسه، أو يصور بها تجربة عاطفية مرَّ بها فى حياته .

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٩٣
(٢) اللسان (مادة ظلف) جـ ٤ ص ٢٧٥٢
(٣) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٨٨

ولم تكن هذه الأغراض الشعرية هي كل ما لهج به ، فقد رثى ابنه (عنبس) وبكاه بشعر حزين ، وقد ذكر الجاحظ ثلاثة أبيات تحدث فيها يزيد عن يوم السقيفة (١) ، كما أن له أشعاراً تندرج فى شعر الوصف ، وله بعض الأبيات التي قالها فى مناسبات متعددة .

وكان يزيد معتدلا فى فخره ومدحه قويا فى عتابه ووعظه ، وقد اتصف بالجرأة والشجاعة والثقة بالنفس ومجابهة المخاطر ، وكان واحداً من الشعراء المتفردين فى العصر الأموى، وهو أبرز الشعراء الذين يمثلون قبيلة ثقيف فى القرن الأول الهجرى .

---

(١) انظر البيان والتبيين حـ ٣ ص ٣٦٢ (تحقيق عبد السلام هارون) ، طبع الخانجى .

الفصل الرابع

العرجى

الشاعر الغزلى فى مكة والطائف

١ — بين مكة والطائف :

ذكر النقاد وأكثر كتاب التاريخ عبدالله بن عمر والمعروف بالعرجى من شعراء مكة .. لكنه عاش أكثر عمره بالطائف ، ولم يرجع إلى مكة إلا بعد أن تحطمت آماله على صخور بنى أمية الذين حالوا بينه وبين ما كان يسعى إليه ، مع أنه من حفدة عثمان بن عفان ذلك الخليفة الذى حمل الأمويون قميصه ، ونادوا بدمه ، ولكن رغبتهم فى الحكم كانت تفوق — بكثير — ما كان يطمح إليه أبناء الصحابة والتابعين فى الحجاز ، وقد ضمنا العرجى — وهو قرشى — إلى شعراء الطائف حيث كانت أملاكه بها ، ولا يكاد يفارقها ، كما لا يخفى هذا اللقب الذى اشتهر به وهو العرجى نسبه إلى العرج « وهى قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف » (١) .

وقد طغى اللقب على اسمه الذى غفل الناس عنه وهو « عبدالله بن عمر ابن عمرو بن عثمان بن عفان .. » (٢) كما جاء فى الأغانى وأكثر المصادر التى تحدثت عنه وترجمت له ، أما نسبه من جهة أمه فقليل من ذكره أو تحدث عنه ، وأورده أبو الفرج فقال : « وأم العرجى آمنة بنت عمر بن عثمان »

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٩٨ .

(٢) الأغانى جـ ١ ص ٣٨٣ .

وقال إسحاق : سعيد بن عثمان ، وهي لأم ولد »(١) ، ويكنى بأبي عمرو . وإن لم يعرف بذلك .

وهو من شعراء الغزل المعدودين بالحجاز ، وله في ذلك مذهب ينحو فيه منحى عمر بن أبي ربيعة ، أما ما جاء في الشعر والشعراء من أنه « أشعر بني أمية »(٢) فهي مبالغة مكشوفة من ابن قتيبة سقط فيها بقلمه ، أو أوقعه فيها الراوة والنساخون .

عاش العرجي سنوات عمره وكأنها حياتان ، لما بين كل حياة أو مرحلة من تباين شديد واختلاف ظاهر ، وانعكس ذلك على سلوكه وشعره كما سوف نرى . ومن الملاحظ أن المرحلة الأولى هي حياة الكرم والشجاعة والفروسية والحب والغزل والمجون ، وقد قضى أكثر سنواتها في قرية العرج بالطائف ، أما المرحلة الثانية فهي حياة الخصومة مع والي مكة وما أعقبها من سنوات السجن التي تعذب فيها أيما تعذيب ، إلى أن توفي بمحبسه ، وعاش أكثر سنوات هذه الفترة بمكة المكرمة .

٢ — حياته الأولى :

اتخذ العرجي من أملاكه في الطائف عوناً له على ممارسة اللهو والصيد حيث كان حريصاً عليهما ، قليل المحاشاة لأحد فيهما ، ولم يكن له نباهة في أهله ، وشجعه ذلك على الحياة في الطائف والاستقرار فيها ، وكان أشقر ، أزرق ، جميل الوجه ، وذكر أبو الفرج بعض صفاته بالرواية عن الآخرين ، فقال : « كان أزرق كوسجا(٣) ناتىء الحنجرة ، وكان

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٨٥ .

(٢) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٧٨ .

(٣) الكوسج : الأثط وهو الخفيف شعر اللحية أو الخفيف شعر العارضين .

صاحب غزل وفتوة ، وكان يسكن بمال له فى الطائف يسمى العرج ، فقيل له العرجى ، ونسب إلى ماله ، وكان من الفرسان المعدودين مع مسلمة ابن عبد الملك بأرض الروم ، وكان له معه بلاء حسن ونفقة كثيرة»(١). وكان له حائط يقال له العرج فى وسط بلاد بنى نصر بن معاوية فكانت دوابهم تدخل فيه فيعقر كل ما دخل منها ، وأظن أن ذلك لم يكن عن بخل أو شح منه ، وإنما لما كان بينه وبين أصحابها من عداوة وشكاية ، وهو من أفرس الناس وأبراهم لسهم ، وربما برى مائة سهم من الرمان وقتل بها مائة ناقة من إبل بنى نصر من غير أن يتوانى عن فعل ذلك .

وكان غنياً كأكثر القرشيين الذين امتلكوا إقطاعات فى الطائف ، وانعكس ذلك على مظهره وسلوكه ، فكان يستقى على إبله فى شملتين(٢) ثم يغتسل ويلبس حلتين بخمسمائة دينار ويقول :

يوما لأصحابى ويوما للمال   مدرعة يوما ويوماً سربال (٣)

وكان غازياً فأصيب الناس بمجاعة فإذن للتجار أن يصرفوا للناس — على حسابه — فبلغ ذلك عشرين ألف دينار ألزمها على نفسه ، وعلم عمر بن عبد العزيز بذلك ، فقال : إن بيت المال أحق بهذا ، وأخذ التجار مستحقاتهم من بيت المال .

ويبدو أن العرجى كان يأمل فى الوصـــول إلى منصب فى جيش ، أو ولاية على بلد ، ولكن لم يتم له ذلك ، فاعتزل إلى الحجاز فى المرحلة الثانية من عمره ، واتجه إلى اللهو والمكائد .

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٣٨٦ .

(٢) الشملة : كساء مخمل دون القطيفة يشتمل به ، أو مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به .

(٣) الأغانى جـ ١ ص ٣٩٥ .

وإذا تركنا هذا الجانب من حياته الأولى بما فيه من كرم وشجاعة وفروسية فسوف نرى الجانب الآخر مليئاً بالظرف واللهو والمغامرات الغزلية ، وقد نقل أبو الفرج كثيراً من معالم هذا الجانب الذى يشبه به سلوك عمر بن أبى ربيعة ، ولعلنا نستهل الحديث عن هذه المغامرات بما كان بينه وبين أم الأوقص ، فقد جاء فى الأغانى : « أن العرجى خرج إلى جنبات الطائف متنزها ، فمر ببطن النقيع(١) ، فنظر إلى أم الأوقص ، وهو محمد بن عبد الرحمن المخزومى القاضى ، وكان يتعرض لها ، فإذا رآها رمت بنفسها ، وتسترت منه ، وهى إمرأة من بنى تميم ، فبصر بها فى نسوة جالسة وهن يتحدثن ، فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب ، فعدل عنها ولقى أعرابياً من بنى نصر على بكر له ومعه وطبا(٢) لبن ، فدفع إليه دابته وثيابه ، وأخذ قعوده ولبنه ولبس ثيابه ، ثم أقبل على النسوة فصحن به : يا أعرابى ، أمعك لبن ؟ قال نعم ، ومال إليهن ، وجلس يتأمل أم الأوقص ، وتواثب من معها إلى الوطبين ، وجعل العرجى يلحظها وينظر أحيانا إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً وهن يشربن من اللبن . فقالت له امرأة منهن : أى شىء تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ أضاع منك شىء ؟ قال : نعم ، قلبى . فلما سمعت التميمية كلامه نظرت إليه وكان أزرق فعرفته ، فقالت : العرجى ابن عمر ورب الكعبة ! ووثبت وسترها نساؤها وقلن : انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبنك . فمضى منصرفا ، وقال فى ذلك :

أقول لصاحبى ومثل ما بى ... شكاه المرء ذو الوجد الأليم
إلى الأخوين مثلهما إذا ما ... تأوبه مؤرقة الهموم
لحينى والبلاء لقيت ظهراً ... بأعلى النقع أخت بنى تميم

---

(١) النقيع : موضع بجنبات الطائف .
(٢) الوطب : سقاء اللبن .

فلما أن رأت عيناى منها أسيل الخد فى خلق عميم(١)
وعينى جؤذر خرق وثغر كلون الأقحوان وجيد ريم
حنا أترابها إدونى عليها حنو العائدات على السقيم (٢)

وللعرجى مقولة يذكرها الناس فى موقف له ، فقد حدث ابن مخارق قال : « واعد العرجى هوى(٣) له شعبا من شعاب عرج الطائف إذا نزل رجالها يوم الجمعة إلى مسجد الطائف. فجاءت على أتان لها معها جارية لها، وجاء العرجى على حمار معه غـلام له ، فواقع المرأة ، وواقع الغلام الجارية ، ونزا الحمار على الأتان ، فقال العرجى : هـذا يوم غاب عذاله »(٤) وضاعت صلاة الجمعة ، ولا نظن إلا أن هذه واحدة من الطرف التى أملاها خيال الرواة على شخصية العرجى .

أما موقفه مع (كلابه) فقد جاء فى شعره ، وذكرته أو أشارت إليه كتب الأدب ، وكانت كلابة مولاة لثقيف عند عبد الله بن القاسم الأموى العبلى ، وقد حزنت لتشبيب العرجى بالنساء وذكره لهن فى شعره ، وشدة جرأته على نساء قريش ، وأقسمت إن لقيته لتسودن وجهه ، وعلم العرجى بذلك ، وعرف أن وليها ترك محله ، وخرج إلى مكة ، فأتى قصره ، وطاف به فخرجت إليه كلابه ، وصاحت به ، وأخذت ترميه بالحجارة ، وتمنعه أن يدنو من القصر ، ورفضت أن تسقيه مخافة أن يلتصق بها منه شر ، فانصرف وقد اختزن لها ذلك ، وقال :

---

(١) عميم : تام .
(٢) الأغانى جـ ١ ص ٣٩٦ ، ص ٣٩٧ .
(٣) هوى بمعنى مهوى أى محبوبة .
(٤) الأغانى جـ ١ ص ٣٩٥ .

حور بعثن رسولا فى ملاطفة

ثقفا إذا غفلت النساءة الوهم (١)

وذكر فى القصيدة التى بلغت أبياتها ثلاثة وعشرين (كما جاءت فى الأغانى) هذه المغامرة مع كلابه تلك الجارية التى خلد شعر العرجى اسمها وطهارتها وغيرتها على نساء قريش، وقد وصف ـ فى مجموعة من الأبيات ـ تجشمه لمشاق الوصول إلى أن كان بإزاء الباب وتحدث عن الجارية فقال:

قالت كلابة من هذا ؟ فقلت لها

أنا الذى أنت من أعدائه زعموا

أنا امرؤ جد بى حب فأحرضنى

حتى بليت وحتى شفنى السقم

لا تكلينى إلى قوم لو أنهم

من بغضنا أطعموا لحمى إذا طعموا

وقال :

هذى يمينى رهن بالوفاء لكم

فارضى بها ولأنف الكاشح الرغم

قالت : رضيت ولكن جئت فى قمر

هلا تلبثت حتى تدخل الظلم

فبت أسقى بأكواس أعل بها

من بارد طاب منها الطعم والنسم (٢)

---

(١) الوهم : الكثير الوهم ، وهو السهو والغلط .

(٢) النسم والنسيم : الريح الطيبة .

حتى بدا ساطـــع للفجر نحسبه
سنى حريق بليل حـين يضطرم
كغرة الفرس المنسوب قد حسرت
عنه الجلال (١) تلالا وهو يلتجم
ودعتهن ولا شيء يراجعنى إلا البنانُ ولا الأعين السجمُ (٢)

ونكتفى من القصيدة (٣) بهذا القدر الذى يصور مغامرته مع (كلابه) ولكن انتقامه لم ينته بعد، فقد أعطى هـذا الشعر لجماعة من المغنين، وصنعوا منه عدة ألحان ولما سمع العبلى بالشعر يغنى أخرج الأمة وأتهمها، ثم أرسل بها بعد زمان على بعير بين غرارتى بعر فأحلفها بمكة بين الركن والمقام أن العرجى كذب فيما قال، فحلفت سبعين يميناً، فرضى عنها وردها، وكان إذا سمع قول العرجى :

فطالما مسنى من أهلك النعم

قال : كذب والله ما مسه ذلك قط .. وقد ذكر الأغانى هذه المغامرة بتفصيلاتها وهى تتلاءم مع شخصية هذا الشاعر المستهترة الساخرة التى تشبه — من وجوه كثيرة — شخصية عمر بن أبى ربيعة . بل إن قصيدة العرجى السابقة تذكرنا بقصيدة لعمر، وهى الرائية التى قال فى أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ؟
غـــداة غد أم رائح فمهجر ؟

---

(١) الجلال : جمع جل وهو ماتلبسه الدابة لتصان به .
(٢) السجم : جمع سجوم، والسجوم من العيون : الكثيرة سيلان الدمع
(٣) راجع كل الأبيات بالأغانى ح ١ ص ٣٨٩، ص ٣٩٠

وقد امتد لسانه بالغزل الفاضح إلى عاتكة زوج واحد من شعراء الطائف وهو طريح بن إسماعيل الثقفى ، فقال فيها أبياتاً غزلية ذات معان مكشوفة ، ثم أحكم إساءته فأدخل هذه الأبيات إلى ساحة المغنيين بمكة المكرمة ، فازداد التشهير بعاتكة بدون سبب معروف .

وذكر الأغانى أبياتاً للعرجى فى زوجه (أم عثمان بنت بكير بن عمرو ابن عثمان بن عفان) .

فقال فيها :

إن عثمان والزبير أحلا	دارها باليفاع(١) إذ ولداها
إنها بنت كل أبيض قرم(٢)	نال فى المجد من قصى ذراها
سكن الناس بالظواهر منها	وتبوا لنفسه بطحاها (٣)

وكان الرشيد بعد أن تزوج امرأته العثمانية يتغزل بهذه الأبيات إعزازاً لزوجته ، وإعجابا بالأبيات .

وقد وضح أن ما قاله العرجى فى هذه المرحلة من عمره لا يخرج فى ملامحه وبواعثه عن النماذج السابقة التى تمثل غناه وكرمه وبأسه من ناحيه وظرفه ومجونه من ناحية أخرى ، ولكن شمس شبابه لم تلبث أن غابت . فأخذ يوطن نفسه لخريف عمره الذى عاشه ، أو قضى معظمه فى مكة المكرمة .

---

(١) اليفاع : المشرف من الأرض والجبل .
(٢) القرم من الرجال : السيد المعظم .
(٣) الأغانى ج ١ ص ٣٩٩

٣ — حياته الثانية :

تمثل الحياة الثانية للعرجي المرحلة الأخيرة التى أفضت به إلى الحبس الذى أودعه فيه والى مكة محمد بن هشام المخزومى، ولم يكن السجن إلا نهاية لمجموعة من التجاوزات التى أوقع العرجى نفسه فيها ، كما أن هذه التجاوزات كانت تعبيراً عن قلقه ويأسه من تحقيق آماله .

وكان من الأحرى به أن يدع عبث الشباب إلى جد الشيوخ ، ولكن الوالى لم يسكت عن هذا الفتى القرشى واستهتاره ، الذى كان قد تحرش به ، فذكر أمه (جيداء) فى شعره ، وتغزل بها من غير حب لها كقوله فيها :

إلى جيداء قد بعثو رسولا ليحزنها فلا صحب الرسول
كأن العام ليس بعام حج تغيرت المواسم والشكول (١)

وقد تباينت مواقف القرشيات من التغزل بهن اختلافاً كبيراً فمنهن من كانت تسعى إلى الشاعر وتطلب منه أن يذكرها فى شعره ، وترى فى ذلك دلالة على جمالها وقوة أسرها ، وليس يخاف علينا ما قاله عمر ابن أبى ربيعة فى فاطمة بنت عبد الملك ، بل إنها أعطت من أتاها بشعر قاله فيها لكل بيت عشرة دنانير ، كما كانت عائشة بنت طلحة تعجب وتزهو بشعر عمر فيها ، وبعض النساء كن يطلبن من عمر ألا يذكرهن صراحة فى شعره .

وكان أفراد البيت الأموى الحاكم يكرهون ذكر نسائهم فى الشعر.. فما بالك بالغزل الفاضح المكشوف، ولذلك نقدر للمخزومى غيرته على أمه وزوجه ، وغضبه من تغزل العرجى فيها، خاصة وأن هذا الشاعر من الذين ..

---

(١) المرجع السابق ح ١ ص ٣٨٢.

يتغنى بشعرهم ، وبذلك تنتشر الأقاويل وتعم البلوى بسبب هذا الغزل الذى يعيب أهل بيت الأمير أو الوالى وهو شخصية لها من التقدير ما ليس لغيرها .

ومما قاله العرجى فى جيداء :

عوجى علينا ربة الهودج إنك إن لا تفعلى تحرجى
إنى أتيحت لى يمانية إحدى بنى الحارث من مذحج
نلبث حولا كاملا كله ما نلتقى إلا على منهج
فى الحج إن حجت وما ذا منى وأهله إن هى لم تحجج (١)

ولهج المغنون أيضاً بهذا الشعر ، وأعجبوا به ، بل كان الواحد منهم يقسم بالطلاق على زوجته أن يسمعه الآخر، وبخاصة البيت الذى قال فيه :

فى الحج إن حجت ، وماذا منى وأهله إن هى لم تحجج

وكان ابن سريج قد لقى عطاء بن أبى رباح ، وهو راكب بمنى على بغلته فأقسم الأول بالطلاق أن يقف لسماع غناء الأول لهذا البيت السابق وإلا فسوف يمسك زمام بغلته ، ولا يفارقها ، ولو قطعت يده حتى يغنيه ويرفع صوته ، وأذن له عطاء فغناه .

ولم يقنع العرجى بهذا الشعر الذى طعن به المخزومى ، والذى لم يكن تعبيراً عن عاطفة وحب لجيداء ، فانثنى يشبب بزوجه (جبرة المخزومية) فقال فيها :

عوجى على فسلمى جبر فيم الصدود وأنتم سَفْرُ
ما نلتقى إلا ثلاث منى حتى يفرق بيننا النفر
الحول بعد الحول يتبعه ما الدهر إلا الحول والشهر (٢)

---

(١) الأغانى ج ١ ص ٤٠٦ ، ص ٤٠٧
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٨

وتناشد المغنون هذا الشعر، وتلاعبوا بألحانه بمثل ما صنعوا مع الشعر الذى قيل فى جيداء . وهكذا صارت أم الوالى وزوجه — وقد تكون معهما أخته — أمثولة للناس وأضحوكة للشعراء والصعاليك والشطار .

وذكر أبو الفرج أن هذه الأشعار، ومنها أيضاً ما قيل فى هجاء محمد المخزومى قد أذهبت الشاعر إلى السجن، فقد اضطغن عليه الوالى، وانتظر المناسبة التى حلت به أو السبيل التى وقع فيها، ولم يلبث أن وجده .. «فأخذه وقيده وضربه، وأقامه للناس، ثم حبسه، وأقسم : لا يخرج من الحبس مادام لى سلطان، فمكث فى حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات فيه»(١) فى عام مائة وعشرين من الهجرة .

والظاهر أن ذلك لم يكن سبباً للحبس، فكم من الشعراء من قال بمثل قوله فى نساء الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد، ولم يلق من العقوبة والإهانة ما لقيه العرجى، ذلك الشاعر الذى كان واحـــداً من ضحايا الكراهة بين البيت الحاكم فى الشام وأبناء الصحابة وحفدتهم فى الحجاز . وقد كان هناك سبب آخر اندفع إليه العرجى بتهوره — أو بظلمه وقسوته أيضاً، فسيق من أجله إلى السجن حيث خاصم مولى لأبيه، وأجابه المولى بمثل ما قال فيه، وأمهله العرجى إلى الليل، حيث أتاه مع جماعة من مواليه وعبيده، وهجم عليه فى منزله، ثم أوثقه، وسلط عليه عبيده ففضحوا امرأته أمامه، ثم قتله، وأحرقه بالنار، فاستعدت امرأته عليه محمد بن هشام المخزومى، فقبض عليه، وضربه وحلق رأســـه، وصب عليه الزيت، وعرضه للناس، وأدخله السجن، وبقى فيه إلى أن مات، وقيل إن ظلم العرجى كان لأحد مواليه الذى وكله بخدمة حرمه، فكان يختلف إليهن ويحدث بعضهن، فقتله وأحرقه بالنار، وسواء أفعل المولى هذا الأمر

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٩

أو ذاك ، فلم يكن يستحق القتل والإحراق ، ولذلك وجد المخزومى فى هذا الأمر بالإضافة إلى هجائه له ، وغزله بأمه (جيداء بن عفيف) وزوجه (جبرة المخزومية) ما يستحق عليــه السجن والتعذيب ، ومن هنا بدأت المأساة الحقيقية للعرجى الذى كان ضحية لمجموعة من السلوكيات التى وقع فيها ، أو أجبرته الظروف المحيطة به على الوقوع فيها ، ولذلك تفجرت مأساته داخل السجن ، وبكى على واقعه الممض ، فقال :

أضاعونى وأى فــتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغــر
وصبر عند معترك المنايا وقد شرعت أسنتها بنحرى
أجرر فى الجوامع (١) كل يوم
فيالله مظلمتى وصــبرى
كأنى لم أكن فيهم وسيطاً
ولم تكن نسبتى فى آل عمرو(٢)

وقد تمثل كثير من القادة العظام بهذه الأبيات . ولعل من أبرزهم محمد ابن القاسم الثقفى الذى قضى أكثر حياته فاتحاً فى آسيا ، كما غدا البيت الأول منها مضرب المثل لكل من هان على قومه بعد أن أبلى البلاء الحسن من أجلهم .

ولم تلبث حوادث الأيام أن كشفت عن تحامل المخزومى على العرجى فبعد أن توفى هشام بن عبد الملك وولى الخلافة الوليد بن يزيد اضطغن على المخزومى وأخيه إبراهيم بن هشام لذلك ، وضربهما ضرباً مبرحاً ،

(١) الجوامع : جمع جامعة وهى هنا الغل.
(٢) آل عمرو: يقصد عمرو بن عثمان بن عفان ، والأبيات فى الأغانى جـ١ ص ٤١٣

وأثقلا بالحديد ، ووجه بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة ، وحبسا مع خالد القسرى ، وعذبوا تعذيباً شديداً إلى أن ماتوا جميعاً فى يوم واحد ، وهكذا انتقم للعرجى ، فهو ابن عمه وولى ثأره كما قال .

٤ — تقويم شعره :

لقد عقد أبو الفرج فصلا مطولا فى الأغانى عن حياة العرجى وشعره ، وتحدث فيه عن الغرام بهذا الشعر الذى ذاع وانتشر على ألسنة جماعات المغنين فى مكة المكرمة ، وسبق أن ذكرنا من الأشعار والمواقف المختلفة ما يكشف عن ميول هذا الشاعر واتجاهاته ، فقد عاش بالطائف ، وانتهت حياته فى مكة فأخذ من الطائف طيب هوائها وجمال وديانها وكثرة خيراتها ، فتلهى ، وبالغ فى لهوه ، وتجمل بأفضل الصفات كالكرم والشجاعة والفروسية ، بينما تأثر فى مكة بالطرب والغناء ، فلان شعره ورقت ألفاظه ، وحسن ظرفه ، لكنه انحرف عن الشعر إلى السياسة ، أو مال به إلى العنف والقوة ، وكأنه وظف الغزل فى السياسة أو تغزل بقصد الهجاء ، وترك شعر الحب ، واتجه إلى الهجاء والفخر والشكوى من الدهر .

وما أكثر ما أعجب القدماء بغزله ونسيبه ، ولنقرأ ما ذكره أبو الفرج مروياً عن عبد الله بن عمر العمرى قال : « خرجت حاجاً ، فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام أرفثت فيه فأدنيت ناقتى منها ، ثم قلت لها : يا أمة الله ، ألست حاجة ! أما تخافين الله ! فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ، ثم قالت : تأمل ياعم ! فإننى ممن عنا العرجى بقوله :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها
وأدنت على الخدين برداً مهلهلا

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة
ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

قال ، فقلت لها : فإنى أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار . قال : وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها : أعزبى قبحك الله ! ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز »(١) .

وهذه امرأة أخرى أعجبت أيضاً بشعر العرجى ، وهى حبشية من مولدات مكة ، وقد صارت إلى المدينة ، فلما عرفت بموت عمر بن أبى ربيعة(٢) اشتد جزعها، وأخذت تبكى وتقول: «من لمكة وشعابها وأباطحها ونزهها ووصف نسائها ، وحسنهن وجمالهن ووصف ما فيها ! فقيل لها : خفضى عليك، فقد نشأ فتى من ولد عثمان رضى الله عنه يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه ، فقالت أنشدونى من شعره ، فأنشدوها ، فمسحت عينيها وضحكت وقالت: الحمد لله الذى لم يضيع حرمه »(٣) سريتم والله عنى .

ولم يتوقف الإعجاب بشعره على النساء، فقد أعجبت به طوائف أخرى من الرجال ، فكان أبو حنيفة يعجب بغناء من شعر العرجى ، فقيل إنه استمع كثيراً لجار له وهو يغنى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

وتغيب هذا الجار ، وعرف أبو حنيفة أنه اقتيد إلى الحبس ،

---

(١) الأغانى حـ ١ ص ٤٠٤
(٢) توفى سنة ثلاث وتسعين من الهجرة .
(٣) الأغانى حـ ١ ص ٣٧٨

وركب الشيخ إلى عيسى بن موسى(١) ، وطالب أبو حنيفة بالإفراج عن هذا الرجل (المغنى) فأوصى عيسى بإطلاق كل من أخذه العسس فى تلك الليلة ، ولما خرج ، قال له أبو حنيفة : « ألست كنت تغنى يافتى كل ليلة :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

فهل أضعناك ؟ قال : لا والله أيها القاضى ، ولكنك أحسنت وتكرمت ، أحسن الله جزاءك قال : فعد إلى ما كنت تغنيه ، فإنى كنت آنس به ، ولم أر به بأساً . قال : أفعل »(٢) .

وقد سجلت مؤلفات القدماء مظاهر أخرى للإعجاب بشعر العرجى ، ولو ذكرتها لأطلت الكلام .

وفى العصر الحديث كتب الدكتور طه حسين عن العرجى فصلا ممتازاً بجريدة (السياسة)(٣) .

واستهله بقوله : « أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف خفيف الروح محبب إلى النفس ، فيه خصال الرجل العربى حقاً ، لا أريد عربى البادية ، ولا أريد الحضرى الفقير ، وإنما أريد العربى الذى قضى الله له مولداً كريماً وثروة ضخمة ومكانة ممتازة ، فاستمتع بهذا كله كما ينبغى أن يستمتع به ، وظفر من هذا كله بما يستتبع من الخلال الحسنة والسيئة ، فأنت تجد عنده مزايا الثروة ونقائصها ، وأنت تجده مصدراً لكل ما يصدر

---

(١) راجع ترجمته بالأغانى جـ ١٦ ص ٢٤١

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٤

(٣) نشرته الجريدة فى يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٢٤م ، ثم طبع ضمن كتاب (حديث الأربعاء) الجزء الأول .

عن الأرستقراطية من خير وشر ، وأنت تجده مثلا صادقاً لهذه الطائفة من الشباب الحجازى الذى حدثتك عنه غير مرة ....»(١) .

كما اهتم الأخوة فى العراق بالعرجى ، فكتب عنه أحدهم فى مجلة الرسالة(٢) ، وأفاض فى الحديث عن ديوانه ، ودعا إلى نشره وإخراجه وكان أن طبع الديوان لأول مرة — حسب علمى — فى بغداد (٣) بنشر خضر الطائى ورشيد العبيدى ، ثم توالت الكتابة عن هذا الشاعر العربى الثائر .

٥ — بين العرجى وعمر بن أبى ربيعة:

لقد عاش ابن أبى ربيعة عمره كله فى الحجاز ، وتوفى قبل العرجى بما يقرب من سبعة وعشرين عاماً ، وهى فترة كافية لأن يكون فيها شاعر هذا الفصل خليفة لابن أبى ربيعة، وسبق أن قلنا إن قصيدة العرجى فى (كلابة) تشبه (فى موضوعها وفكرتها ورقة ألفاظها) قصيدة عمر بن أبى ربيعة فى (نعم) غير أن عمر كان شاعراً متخصصاً فى الغزل ، رائداً فى فنه، بعكس العرجى الذى قال أكثر شعره فى الغزل ثم تأتى الأغراض الأخرى مثل الأدب والمدح والهجاء والفخر والشكوى، وقد مثلنا لبعض هذه الألوان .

وقد أخطأ (ابن قتيبة) مرة أخرى عندما ذكر أن العرجى قد هجا

---

(١) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين ج ١ ص ٢٤٠ طبع دار المعارف .

(٢) كتب عنه الأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى فى الرسالة السنة (١٩) العدد (٩١٣) أول يناير سنة ١٩٥١ م ص ٧٠٦—٧٠٧

(٣) خرج الديوان بشرح وتحقيق خضر الطائى ورشيد العبيدى . طبع الشركة الإسلامية للطباعة والنشر — بغداد ١٩٥٦م .

إبراهيم بن هشام المخزومى فأخذه وحبسه(١)، إذ أن الثابت — من واقع المصادر التى أطلعنا عليها — ومنها الأغانى — أن الذى قام بذلك هو محمد بن هشام المخزومى، أمير مكة وخال الخليفة(هشام بن عبدالملك)، وأخو (إبراهيم) المذكور .

وقد اتصف عمر بن أبى ربيعة بالرقة والتأنى والهدوء ، وكان مطمئناً — كما قال طه حسين —(٢) إلى لين الحياة . وخفض العيش وحديث النساء بينما كان العرجى فيه فضل من قوة وعنف، وبالغ فى أشياء كثيرة كاللهو والجود والبأس والكراهية، وقد انعكست هذه الصفات عليه ، فأعرض الناس عنه أيام محنته مع محمد المخزومى .

كما لم تكن لعمر أطماع سياسية، وكأنه احتقر السياسة وأهلها ، فقصر شعره على النساء ، بينما حاول العرجى السياسة ، وبنى آماله على أوهام أو أطماع ليست له، فعادى السياسيين وهجاهم وحاربهم فى نسائهم، ولذلك كان مصيره إلى السجن الذى قضى فيه السنوات الأخيرة من حياته .

---

(١) انظر الشعر والشعراء ح ٢ ص ٥٧٨

(٢) انظر حديث الأربعاء ح ١ ص ٢٤٦ إلى ٢٤٨

الفصل الخامس

يزيد بن ضبة

شاعر ثقيف من الموالى

١ — إطلالة على حياته :

لم تذكر المصادر فى نسب يزيد أكثر من قولهم بأنه يزيد بن ضبة الثقفى وكان أبوه واسمه (مقسم) قد مات، وخلفه صغيراً، وعكفت (ضبة) وهى أمه على تربيته فنسب إليها، وذلك لشهرتها أيضا، إذا كانت تحضن أولاد المغيرة بن شعبة ثم أولاد ابنه عروة بن المغيرة .

و (يزيد بن ضبة) من موالى ثقيف، ولا ينتظر أن تحظى نشأته بأكثر مما يناله قرناؤه . وإن كانت الأوضاع الاقتصادية فى الطائف تيسر لواليه أن ينفق عليه بلا حرمان، وكان هذا الولاء لبنى مالك بن حطيط، ثم لبنى عامر بن يسار، وقد تزوج (يزيد) بامرأة تسمى (عمارة) وورد فى رواية للأغانى اسم ابن لها يسمى (عبد الله) وكان شاعرنا يتهاجى مع مولى آخر لثقيف يسمى عنتر بن عروس .

ويبدو أن (ابن ضبة) قد بز أقرانه فى قول الشعر، وتجاوز اسمه حدود الطائف، وعلم به الأمراء فى الشام، فكانت النقلة الأولى فى حياته إلى مقر الخلافة بدمشق، وبدأ اتصاله بالوليد بن يزيد أيام أن كان أميراً، وقد كانت (أم الوليد) من ثقيف، ولذا وجدناه يقبل على هذه القبيلة ويختار شعراءه منها .

وكان (يزيد) فى معيته ، وبخاصة فى المدة التى كان والده (يزيد بن عبد الملك) خليفة (١٠١ هـ — ١٠٥ هـ) وامتدح شاعرنا الوليد بشعر لا نستطيع أن نتعرف على ظروفه ومناسباته، وقد كشفت رياح التغيير فى الشام عن واحدة من أجود القصائد التى هتف بها ابن ضبة ، وذلك عندما انتقلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك (من ١٠٥ هـ — ١٢٥ هـ) وأتاه ليهنئه، ويمدحه ، ولكن هشاماً لم يأذن له وأمر بإخراجه .

ومن الواضح أنه رفض هذا الشاعر لعلاقته بالوليد ، فلم يكونا على وفاق ، وبلغ الوليد ماجرى لشاعره ، فبعث إليه بخمسمائة دينار ، وأشار عليه بالعودة إلى الطائف ، ووجهه إلى ماله هناك ، ووفر له كل وسائل الحياة ، وعاش يزيد بالطائف طوال السنوات التى كان فيها هشام خليفة للمسلمين ، ولا نظن أنه انقطع فيها عن مدح الوليد ، ونأتى إلى أولى القصائد التى حفظتها لنا مصادر الأدب ، حيث ترك يزيد الشام عائداً إلى الطائف ، فقال هذه القصيدة يعرض فيها بهشام بن عبد الملك ، فضلا عما فيها من نسيب وفخر ، وجاءت فى ستة وعشرين بيتاً حسب روايتها فى الأغانى .

قال :

أرى سلمى تصد وما صددنا وغير صدودنا كنا أردنا
لقد بخلت بنائلها علينا ولو جادت بنائلها حمدنا
وقد ضنت بما وعدت وأمست تغير عهدها عما عهدنا

وقال :

فلا تنسوا مواطننا فإنا إذا ما عاد أهل الجرم عدنا
وما هيضت مكاسر من جبرنا ولا جبرت مصيبة من هددنا
ألا من مبلغ عنى هشاماً فما منا البلاء ولا بعدنا

وما كنا إلى الخلفاء نفضى ولا كنا نؤخر إن شهدنا

ألم يك بالبلاء لنا جزاء فنجزى بالمحاسن أم حسدنا

وقد كان الملوك يرون حقاً لوافدنا فنكرم إن وفدنا

ولينا الناس أزمانا طوالا

وسسناهم ودسناهم وقدنا(١)

وكان الوليد قد وجه ابن ضبة إلى الطائف خوفا عليه ، فلا يأمن جانب هشام عليه ، إذ ربما يذكره مرة فى شعره فيأمر بسجنه وقتله .

وقد بقى يزيد مخلصاً لممدوحه وولى نعمته ، وما إن مات هشام وبويع الوليد بالخلافة سنة مائة وخمس وعشرين حتى انتقل يزيد من الطائف إلى الشام وإذ به يقول للوليد ما لم يقله ، فيهنئه بالخلافة فى واحدة من أروع قصائد التهنئة والمديح .

وإذا كان يزيد قد هنأ الوليد بالخلافة فإنه هنأ نفسه أيضاً بالعودة إلى الشام والوقوف بين أيدى الخلفاء ، وكأنه استعاد ثقته بنفسه بعد طرده من حضرة هشام بن عبد الملك ، وجاء فى الأغانى أنه دخل على الوليد والناس بين يديه جلوس ووقوف على مراتبهم فهنأه بالخلافة ، وأدناه الوليد وضمه إليه ، وقبل يزيد رجليه والأرض بين يديه ، فقال الوليد لأصحابه : هذا طريد الأحول لصحبته إياى وانقطاعه إلى ، فاستأذنه يزيد فى الإنشاد ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، هذا اليوم الذى نهانى عمك هشام عن الإنشاد فيه ، قد بلغته بعد يأس ، والحمد لله على ذلك ، فأذن له ، فأنشده :

سليمى تلك فى العير قفى أسألك أو سيرى

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٩٥ ، ٩٦

وبعد أن وصف المطايا وصفاً بدوياً جميلا يتوافق مع هذه المناسبة
قال :

لتعتام(١) الوليد القر	م أهل الجود والخير
كريم يهب البزل	مع الخور الجراجير(٢)
تراعى حين تزجيها	هويا(٣) كالمزامير
ويعطى الذهب الأحمـ	ـر وزناً بالقناطير
بلوناه فأحمدنا	ه فى عسر وميسور
كريم العود والعنصـ	ـر غمر غير منزور
له السبق إلى الغايا	ت فى ضم المضامير
إمام يوضح الحق	له نور على نور

وذكر أبو الفرج منها واحداً وثلاثين بيتاً ، ثم نقل رواية عن عبد العظيم بن عبد الله بن يزيد بن ضبة جاء فيها بعد تمام الأبيات : « فأمر الوليد بأن تعد أبيات القصيدة . ويعطى لكل بيت ألف درهم ، فعدت فكانت خمسين بيتاً ، فأعطى خمسين ألفا ، فكان أول خليفة عد أبيات الشعر ، وأعطى على عددها لكل بيت ألف درهم ، ثم لم يفعل ذلك إلا

(١) اعتام : اختار واصطفى : يريد : تقصد إليه مختارة له .

(٢) الخور : جمع خوارة وهى الناقة الغزيرة اللبن . والجراجير : جمع جرجور وهو الإبل الكريمة .

(٣) الهوى : الدوى فى الأذن .

بهارون الرشيد ، فإنه بلغه خبر جدى مع الوليد فأعطى مروان بن أبى حفصة ومنصورا النمرى لما مدحاه ، وهجوا آل أبى طالب لكل بيت ألف درهم »(١) .

وقد عاش الوليد بن يزيد فى الخلافة عدة أشهر حيث قتل فى جمادى الآخرة من سنة مائة وست وعشرين ، واختفى يزيد بن ضبة بعد هذا التاريخ ، فلم يوجد له من هو فى مثل الوليد، وتوارى عن الأنظار إلى أن توفى فيما بعد ، وربما فى التاريخ الذى حدده الزركلى وهو نحو عام مائة وثلاثين ويبدو أنه قضى هذه السنوات الخمس حزيناً ملتاعاً فى الطائف بعد نكبة الوليد .

٢ — أغراض شعره :

لقد ذكرنا لابن ضبة نموذجين من شعره وهما فى الفخر والمدح ، أما الفخر فقد قصد به قبيلته ثقيف التى ينتسب إليها ، ويدين لها بالولاء ، ولا يخفى على أحد شيوع الفخر القبلى بين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

وكان لشعراء الطائف نفس طويل فى شعر الفخر ، وبخاصة ممن انتسب منهم إلى قبيلة (ثقيف) صاحبة الأيادى البيضاء على نظام الحكم الأموى .

وجاء الفخر فى القصيدة التى غادر معها الطائف بعد رفض هشام له من بحر الوافر ، وكأنها تذكرنا بقصيدة عمرو بن كلثوم التى تتفق معها فى الروى وإن كانت قصيدة (ابن ضبة) ترتهن بموقف لا ينساه ، ولذلك جاء الفخر فيها مشوباً بالحزن والألم والضيق ، على عكس قصيدة ابن كلثوم التى كانت

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٩٩ ، ١٠٠

تنطق كلها بالقوة والبأس والشجاعة ، فضلاعن قوة الشاعرية التى منحها عمرو ، وجعلت منه رائدا فى شعر الفخر ، أما هذا الغرض فقد جاء فى معية أغراض أخرى فى قصيدة يزيد .

ونأتى إلى المدح الذى اختص به الوليد بن يزيد وإن كان الذى وصلنا منه لا ييسر لنا الحكم على أسلوبه وقدراته فى هذا اللون ، أما القصيدة التى سبق أن ذكرنا بعض أبياتها والتى يهنىء فيها الوليد خليفة للمسلمين فلم تصل إلينا كاملة ، كما أن الأبيات التى خصصها للمديح كانت قليلة بالنسبة للموقف الذى أنشدت فيه . أما أنه قد كوفىء عليها فليس ذلك دليلا على تفردها ، مع أنها — فى مجموعها — قصيدة جيدة وغير معيبة .

وقد انعكست آثار البيئة الطائفية على ماقاله يزيد فى شعر الغزل فجاءت الأوزان فى هذا الغرض خفيفة قصيرة كأنها أراجيز. ثم إنه كان يبدأ قصائده بالنسيب فإذا ضممنا هذه المطالع الغزلية إلى عدة مقطوعات أخرى مما نقل إلينا من شعره استطعنا أن نضع أبصارنا على لوحة لهذا الغرض . غير أن هذه اللوحة تبدو صغيرة جداً لتتلاءم مع هذا المقدار البسيط الذى وصلنا من شعره .

ومما يستجاد من غزله مجموعة الأبيات التى استهل بها القصيدة السابقة، والتى مدح الوليد وهنأه فيها بالخلافة، كما أنه استهل قصيدة طويلة له بالغزل ، وكان قد خرج مع الوليد إلى الصيد ، وقال قصيدة يصف فيها الفرس والصيد ، وبعد أن أتمها وسمعها الوليد قال له اجعل لقصيدتك تشبيبا واعطه الغزيل وعمر الوادى حتى يغنيا فيه ، وأضاف تسعة أبيات إلى ماقاله، وذكرها صاحب الأغانى مستقلة ومنها :

إلى هند صبا قلبى وهند مثلها يصبى

وهنــد غادة غيدا ء من جرثومة غلب
وما إن وجد الناس من الأدواء كالحب
لقد لج بي الإعرا ض والهجر بلا ذنب
ولما أقض من هند ومن جاراتها نحبى(١)

وقد تغزل ابن ضبة بهند وجاراتها وسلمى وسليمى على طريقة الشعراء الحضريين فى الحجاز الذين كانوا يتغزلون بأكثر من واحدة ولا يخفى علينا رائدهم فى هذا المجال وهو عمر بن أبى ربيعة.

كما يصف ابن ضبة محبوباته وصفاً حسياً مكشوفاً بالرغم من قلة النماذج التى وصلتنا من هذا اللون، فضلا عن قلة ماوصلنا من شعره كله.

ونأتى إلى ماقاله من شعر الطرد، وهو الذى يصف فيه الصيد خاصة وأنواع الحيوان عامة، ويبدو أنه كان ذا نفس طويل فى هذا اللون ففى الأغانى قصيدة متميزة، لاتدل على أنها الوحيدة لهذا الشاعر وقد تجلت فيها قدرته على وصف الفرس وصفاً طويلا تناول فيه سرعته وشدة عــدوه، كما عرض لأكثر أجزاء جسمه على طريقة الشعراء الجاهليين ومما قاله فيه:

صليب الأذن والكاهـ ـل والموقف والعجب
عريض الخد والجبهـ ـة والبركة والهلب(٢)
إذا ماحثه حاث يبارى الريح فى غرب

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٠٢
(٢) البركة: الصدر، والهلب: شعر الذنب.

وإن وجهه أسرع كالخذروف في الثقب(١)

وقد امتدت أبياتها فضلا عن الأبيات الغزلية الأخرى التي اقترحها الوليد ، وضمت إلى هذه البائية .

ونؤكد على خطورة مالحق بيزيد بسبب ضياع الكثير من شعره ، فلم يتعرف الناس على الجوانب الكاملة من فنه ، ولم يقرءوا له إلا مجموعة من القصائد لاتزيد عن أربع ، وعدداً من المقطوعات لايزيد عن ذلك ، فضلا عن بعض الأبيات المفردة .

ومما قاله في الحكمة :

لاتبدين مقالة « مأثورة »
لاتستطيع إذا مضت إدراكها(٢)

كما روى له بيتان في الشكوى والتوجع وهما :

وقد جعلت إذا مانمت أوجعني
ظهري ، وقمت قيام الشارف الظهر (٣)
وكنت أمشي على رجلين معتدلا
فصرت أمشي على رجل من الشجر(٤)

وتكشف النظرة العامة للمجموع من شعر يزيد(٥) أنه تعرض

---

(١) الأغاني جـ ٧ ص ١٠١
(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ٢٢٦
(٣) الشارف من الإبل : المسن ، والظهر : الذي يشتكي ظهره
(٤) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٧٦
(٥) جمعه عيضة الصواط في فصل من كتابه (شعراء ثقيف) .

حقيقة السطو والانتحال ، فقد روى عن جماعة من مشايخ الطائفيين وعلمائهم قالوا : « قال يزيد بن ضبة ألف قصيدة ، فاقتسمها شعراء العرب وانتحلتها فدخلت فى أشعارها » (١) وربما تكون هذه مبالغة من المشايخ والعلماء ، إلا إن مقولتهم صريحة فى تعرض شعره للنحل مما جعل الحكم على أغراض شعره وبيان خصائصه غير دقيق ، فقد رويت له بعض القصائد التى لا يقولها إلا من له باع طويل فى فن الشعر

٣ — خصائص شعره :

لقد تعرض شعر يزيد للضياع والنحل ، وهذا يؤكد تميزه وتفرده ، فلو كان رديئاً أو دزيلا لما اقتسمه شعراء العرب — كما قال علماء الطائف ، — كما أن القدر الذى وصلنا لا يعطينا الصورة الكاملة عن ملامح هذا الشعر .

— وردت ليزيد قصيدة ومقطوعة فى وصف الصيد والفرس (من الطرديات) وتتميز بخشونة الألفاظ وحوشيتها ، وكأنها من أشعـــار الجاهليين ، وقد لاحظ الأصمعى ذلك فقال فيما يرويه فى الأغانى : « كان يزيد ابن ضبة مولى ثقيف ، ولكنه كان فصيحاً ، وقد أدركته بالطائف ، وقد كان يطلب القوافى المعتاصة والحوشى من الشعر » (٢) ولذا كثرت الألفاظ الغريبة فى معظم شعره ، ثم إنه يتحكم فى مفرداته ، فتراها فى الغزل رقيقة منسابة ناعمة على عكس ألفاظه فى الفنون الأخرى . فابن ضبة بدوى فى وصف الفرس والصيد ، حضرى فى غزله ومدحه ، وقد ساعدته موهبته وتنقلاته بين الشام والطائف على هذا التلوين المشرق الزاهى .

(١و٢) الأغانى ج ٧ ص ١٠٣

— أسهمت الأوزان القصيرة التى نظم فيها أكثر شعره فى صلاحيته للغناء، وبخاصة ماقاله فى الغزل والشكوى.

— ونؤكد أن الكلمة الأخيرة فى تقويم شعر يزيد لم يقلها أحد بعد مادام الكثير من شعره قد جارت عليه الأيام، فأين الشعر الذى تهاجى به مع عنتر بن عروس؟ وأين القصائد التى قالها بالطائف فى مدح الوليد؟ ونأمل أن تكشف الأيام عن نماذج أخرى لهذا المولى المتميز الفريد.

الفصل السادس

طريح بن إسماعيل الثقفى

شاعر الوليد بن يزيد الأموى

أولا — أطراف من حياته :

عاش طريح الثقفى فى المرحلة الأخيرة من عمر الدولة الأموية ، وقضى بقية عمره فى معية الخلفاء الأوائل للدولة العباسية ، وقد انعكس ذلك على شعره الذى نقلته لنا أمهات الكتب مثل الأغانى وحماسة البحترى والشعر والشعراء ومعجم الأدباء وغيرها .

ونستهل الحديث عن هذا الشاعر ببيان نسبه كما جاء فى معجم ياقوت ، فقال عنه :

« طريح بن إسماعيل بن أسيد بن علاج بن أبى سلمة بن عبد العزى الثقفى وأمه خزاعية بنت عبد الله بن سباع ..»(1) ، وأضاف أبو الفرج زيادات على هذه السلسلة من النسب — من ناحية أبيه — فليرجع إليها من شاء

أما سباع المذكور فى نسبه من جهة أمه فهو سباع بن عبد العزى الذى قتله حمزة بن عبد المطلب فى معركة أحد .. وذكر ابن قتيبة كلمة

---

(1) معجم الأدباء لياقوت الحموى جـ ١٢ ص ٢٢ طبع دار المأمون ونشر دار إحياء التراث العربى - بيروت .

ذات أهمية كبيرة ونحن نتحدث عن طريح فقال عنه : « وكان شاعراً شريفاً ، وله عقب بالطائف »(١) : وتأتى أهمية هذه الكلمة فى أن طريحا كان من أهل الطائف فضلا عن انتسابه لقبيلة ثقيف ، ولذلك ضممناه إلى سائر الشعراء فى هذا الكتاب .

ويكنى هذا الشاعر بأبى الصلت نسبة إلى ابنه (الصلت) الذى قال له :

يا صلت إن أباك رهن منية   مكتوبة لابد أن يلقاها

سلفت سوالفها بأنفس من مضى
وكذاك يتبع باقيا أخراها

والدهر يوشك أن يفرق ريبه
بالموت أو رحل تشت نواها

لابد بينكما فتسمع دعوة   أو تستجيب لدعوة تدعاها(٢)

ولا ندرى شيئاً عن المرحلة الأولى من عمر طريح ، وأول ما نلقاه فى مسيرة حياته هو وفاة زوجته (عاتكة) ، وكان ابنهما (الصلت) صغيراً ، فألقاه طريح إلى أخواله بعد موت أمه وقال فيه :

بات الخيال من الصليت مؤرقى
يفرى السراة مع الرباب الملتقى

ما راعنى إلا ياض وجهه
تحت الدجنة كالسراج المشرق(٣)

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ٢ ص٦٨٢

(٢) الأغانى جـ٤ ص ٣٠٩

(٣) المرجع السابق جـ٤ ص ٣٠٩

تفرز الروايات التاريخية مجموعة من الأخبار التى ترصد حياة طريح، وتتابع تنقلاته من الطائف إلى الشام والعراق إلى أن توفى عام مائة وخمس وستين كما ذكر ياقوت (١).

وليس فى حياته شىء ذو بال يمكن أن يضاف إلى مجموعة الحقائق السابقة إلا ما يتعلق بالمناسبات التى أنشد فيها شعره، فقد تحدث أبو الفرج مثلا عن نشأته ومشوار حياته فقال : « ونشأ طريح فى دولة بنى أمية ، واستفرغ شعره فى الوليد بن يزيد ، وأدرك دولة بنى العباس ، ومات فى أيام المهدى ، وكان الوليد له مكرما مقدما ؛ لانقطاعه إليه ، ولخؤولته فى ثقيف »(٢) .

ثانياً : طريح وخلفاء بنى أمية :

إن القيمة التى يمثلها شعر طريح هى التى جعلته مقدماً وذا حظوة عند عدد من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ويبدو أن شاعريته لم تتوهج إلا فى نهاية القرن الأول الهجرى حيث التقى بخليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، فلم تذكر لنا المصادر التاريخية ما يكشف عن لقاءاته مع خلفاء يتقدمون فى الزمن عليه ، ذلك الخليفة الورع الذى قال لطريح : أنشدنى أبياتاً فيها نصح ومعتبر . فأنشده هذه الأبيات :

وأفضل أعمال الفتى الزاد للتى تدوم وتحلو لى عليها العواقب
وأفضل بر برك الرحم التى عليها تجازى أجلا بالرغائب

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٢٣

(٢) الأغانى جـ ٤ ص ٣٠٩

وحسن ثنا الأبرار فى كل محفل
يدوم له ماجد فى السير راكب(١)

وقد عرف طريح بتوجهاته الإسلامية ، وميوله نحو الحكمة والنصح والاعتبار . وهذا ما يتواكب مع أبياته السابقة ، والتى تكتمل منها ومن غيرها واحدة من أطول قصائده(٢) .

وتتواصل مسيرة صاحبنا إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فقد التقى به عندما كان أميراً ، ثم بعد أن أصبح خليفة حوالى عام مائة وخمسة وعشرين من الهجرة ، ومدحه طريح ، وأشاد به ، وتوجه إليه بأكثر ماقاله من شعر .

وقد كانت (أم الوليد) من قبيلة ثقيف ، وهذا ما شجع الوليد على أن يأنس لشاعر من ثقيف ، ويثق فيه ويرتاح إليه ، ويجعله أول داخل عليه وآخر خارج من عنده ، ولكل هذه الاعتبارات استحق طريح أن يكون شاعره وأن يطلق عليه ذلك ، ويشتهر به فيما بين الناس .

وتحدث طريح — فيمارواه أبو الفرج — عن بعض ما كان بينه وبين الوليد ، فقال : «خصصت بالوليد بن يزيد حتى صرت أخلو معه . فقلت له ذات يوم وأنا معه فى مشربة(٣) : يا أمير المؤمنين ، خالك يحب أن تعلم

---

(١) نقل هذه الأبيات وخرجها صاحب كتاب (شعراء ثقيف فى العصر الأموى) عيضة بن عبد الغفور الصواط ص ٢٢٥

(٢) تألفت من ثمانية وثلاثين بيتاً حسب رصدها فى المرجع السابق ص ٢٢١

(٣) المشربة (بضم الراء وفتحها): الغرفة

شيئاً من خلقه ، فقال : وما هو ؟ قلت : لم أشرب شراباً قط ممزوجا إلا من لبن أو عسل . قال : قد عرفت ذاك ولم يساعدك من قلبي . قال : ودخلت يوماً إليه وعنده الأمويون ، فقال لى : إلى إيا خالى ، وأقعدنى إلى جانبه ، ثم أتى بشراب فشرب ، ثم ناولنى القدح ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد أعلمتك رأيى فى الشراب . قال : ليس لذلك أعطيتك ، إنما دفعته إليك لتناوله الغلام ، وغضب . فرفع القوم أيديهم كأن صاعقة نزلت على الخوان فذهبت أقوم ، فقال : أقعد . فلماخلا البيت افترى على ثم قال : يا عاض كذا وكذا ! أردت أن تفضحنى ، ولولا أنك خالى لضربتك ألف سوط ! ثم نهى الحاجب عن إدخالى ، وقطع عنى أرزاقى . فمكثت ما شاء الله . ثم دخلت عليه يوماً متنكراً ، فلم يشعر إلا وأنا بين يديه ، وأنا أقول :

يا بن الخلائف مالى بعد تقربة
إليك أقصى وفى حاليك لى عجب

مالى أذاد(١) وأقصى حين أقصدكم
كما توقى من ذى العرة(٢) الجرب

كأننى لم يكن بينى وبينكم
إل ولا خلة ترعى ولا نسب

لو كان بالود يدنى منك أزلفنى
بقربك الود والإشفاق والحدب

وكنت دون رجال جعلتهم
دونى إذا ما رأونى مقبلا قطبوا

---

(١) أذاد : أمنع وأدفع
(٢) العرة : الجرب

إن يسمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا
شراً أذاعوا وإن لم يسمعوا كذبوا
رأوا صدودك عنى فى اللقاء فقد
تحدثوا أن حبلى منك منقضب
فذو الشماتة مسرور بيضتنا
وذو النصيحة والإشفاق مكتئب

قال : فتبسم وأمرني بالجلوس فجلست : ورجع إلى وقال : إياك أن تعاود »(١) .

وأتم أبو الفرج أبيات هذه القصيدة التى منها الأبيات السابقة ، وهى تعد واحدة من القصائد المطولة التى أنشدها طريح فى حياته ، ويلاحظ أن القصائد التى طال فيها نفسه قد توجه بها إلى الوليد بن يزيد مادحاً أو معتذراً أو عاتباً أو ناصحاً ، وإذا تركنا هذه البائية فسوف نجد أمامنا قصيدة أخرى حازت قصب السبق فى موضوعها ، وأنشدها أيضاً فى مدح الوليد وهى الدالية المشهورة التى قال فيها :

أقفر ممن يحله السند فالمنحنى فالعقيق فالجمد
لم يبق فيها من المعارف بعـ ـد الحى إلا الرماد والوتد
وعرصة أنكرت معالمها الر يح بها مسجد ومنتضد(٢)
لم أنس سلمى ولا ليالينا بالحزن إذ عيشنا بها رغد(٣)

وقد ذكر أبو الفرج هذه القصيدة كاملة وأورد الأبيات المختارة منها للغناء ، وبلغت أبياتها — حسب روايته — الأربعين .

(١) الأغانى ج ٤ ص ٣١٥ ، ٣١٦ .
(٢) منتضد : مجتمع ومقام
(٣) الأغانى ج ٤ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ص ٣٢٤

أما ثالثة القصائد الطويلة التى أنشدها فهى فى مدح الوليد بن يزيد، وهى العينية التى قالها يستعطفه بها، ويتضرع إليه فيها، وأولها:

نام الخلى من الهموم وبات لى ليـل أكابده وهم مضطلع
وسهرت لا أسرى ولا فى لذة أرقى وأغفل مالقيت الهجع
أبغى وجوه مخارجى من تهمة أزمت على وسد منها المطلع(١)

وجاءت برواية الأغانى فى اثنين وعشرين بيتا.

وتعد هذه القصائد الثلاث أطول ما روته لنا الأخبار من شعر طريح، وما خلا ذلك فعبارة عن مقطوعات صغيرة بين البيتين والثلاثة والأربعة ويضاف إليها بعض القصائد القصيرة التى تتراوح أبيات كل منها بين عشرة أبيات وخمسة عشر بيتا، وتتكشف لنا ميول طريح وتوجهاته من خلال شعره، وبخاصة فيما كان بينه وبين الوليد بن يزيد.

لم تكن العلاقة بين طريح والوليد خالية من التنغيص. فقد نهض الوشاة بقطع حبال الود بين الرجلين، وأسهم حماد الرواية — حسب رواية بعض الأخبار — فى إشعال نار الكراهية فى قلب الوليد على طريح، ولكن هذه الكراهية لم تلبث أن تحولت إلى حب وصفاء ومودة بين الرجلين، وامتدحه طريح بأفضل ما قاله من شعر تغنى به المغنون من أمثال ابن عائشة وغيره.

وذكر أبو الفرج — فيما يرويه عن المدائنى —: «أن الوليد جلس يوماً فى مجلس له عام، ودخل إليه أهل بيته ومواليه والشعراء وأصحاب الحوائج فقضاها، وكان أشرف يوم رئى له، فقام بعض الشعراء، فأنشد، ثم وثب طريح، وهو عن يسار الوليد، وكان أهل بيته عن يمينه، وأخواله عن شماله، وهو فيهم، فأنشده:

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٣١٤ ص ٣١٥

أمت ابن مسلنطح البطاح ولم ... تطرق عليك الحنى والولج(١)

طوبى لفرعيك من هنا وهنا ... طوبى لأعرافك التى تشج(٢)

لو قلت للسيل دع طريقك وال ... موج عليه كالهضب يعتلج(٣)

لساخ وارتد أو لكان له ... فى سائر الأرض عنك منعرج

فطرب الوليد بن يزيد حتى رنى الارتياح فيه . وأمر له بخمسين ألف درهم ، وقال : ما أرى أحداً منكم يجيئنى اليوم بمثل ما قال خالى ، فلا ينشدنى أحد بعده شيئاً وأمر لسائر الشعراء بصلات وانصرفوا ، واحتبس طريحاً عنده ، وأمر ابن عائشة فغنى فى هذا الشعر »(٤) .

ويروون أن الوليد — بعد أن صار خليفة — غضب على ابن عائشة ، فلما غنى الشعر المذكور طرب له ، ورضى عنه ، وقد أعجب أبو الفرج بهذا الشعر ، فتحدث عنه ، وفسر الغامض منه فى متن كتابه ، كما انتقد طريحاً على بعض المعانى التى أوردها فى النص السابق .

وتكتمل مسيرة هذا الشاعر مع الخلفاء الأمويين بلقاء له مع مروان ابن محمد حيث وفد عليه يهنئه بالخلافة مع مجموعة من الشعراء ، وقال له : « الحمد لله الذى أنعم بك على الإسلام إماماً ، وجعلك لأحكام دينه

---

(١) المسلنطح من البطاح : ما اتسع واستوى سطحه منها ، وتطرق عليك : تطبق عليك .

(٢) التشيج : أصول النبت ، وتشج : تشتبك وتلتف .

(٣) يعتلج : يلتطم

(٤) الأغانى حـ ٤ ص ٢١٦ ، ص ٣١٧ ، وقد ذكر ابن عبد ربه أن الشعر السابق قاله طريح فى مدح المنصور (الخليفة العباسى) انظر العقد حـ ٦ ص ١٢٥ تحقيق محمد سعيد العريان ، طبع دار الفكر .

قواماً ، ولأمـــة محمد المصطفى جنة ونظاماً ، ثم أنشده شعره الذى يقول فيه :

تسوء عداك فى سداد ونعمة ... خلافتنا تسعين عاما وأشهرا

فقال مروان : كم الأشهر ؟ قال : وفاء المائة يا أمير المؤمنين ، تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة فى النصرة والتمكين ، فأمر له بمائة ألف درهم »(١) .

وهكذا وجدنا طريحاً يلتقى بثلاثة من الخلفاء الأمويين ، ويتخصص فى مديح واحد منهم وهو الوليد بن يزيد ، ويذكر فيه ثلاثة من أطول قصائده ، وأفضلها ، ولكن دخوله على الخلفاء لم ينقطع ، فقد عايش الأوائل من الخلفاء العباسيين على حسب ما نرى فى السطور التالية .

ثالثاً — طريح وخلفاء بنى العباس :

إذا راجعنا شعر طريح من واقع الكتب والمراجع التى ورد بها ، ثم استثنينا منه القصائد والمقطوعات التى امتدح بها الوليد بن يزيد فسوف نرى القدر الباقى منه قد جاء فى صورة مجموعة من القصائد ذات الأبيات القليلة بالإضافة إلى مجموعـــة أخرى من الأبيات المفردة والمقطوعات القصيرة . وقد جعل طريح هذا القدر مرآة عكس بها مسيرة حياته فى الطائف والشام والعراق .

ولنتابع رحلته مع الخلفاء العباسيين الأوائل . فقد ذكر له أبو إسحاق الحصرى خمسة أبيات فى كتابه (زهر الآداب) وقال(٢) : إنه قالها لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على السفاح ، وأولها :

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ﺟ ٦ ص ٢٢٣ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ﺟ ١ ص ٣٦ تحقيق على البجاوى طبع الحلبى .

قد طلب الناس ما بلغت ولم   يألوا فما قاربوا وقد جهدوا

بينما أورد أبو الفرج هذه الأبيات مع القصيدة التى انتزعت منها ، وقال إنها فى مديح المنصور ، وكتب عنها فى الأغانى يقول : « أنشد المنصور هذه القصيدة ، فقال للربيع : أسمعت أحداً من الشعراء ذكر فى باقى معالم الحى المسجد غير طريح ، وهذه القصيدة من جيد قصائد طريح »(١) :

وأولها :

أقفر ممن يحله السند   فالمنحنى فالعقيق فالسند

ولكن هذا الإنشاد لا ينفى أن طريحاً قالها يمدح فيها الوليد بن يزيد كما سبق القول ، وكما أشار أبو الفرج نفسه إلى ذلك(٢) .

وإذا كنا نشك فيما أورده الحصرى حول هذه الدالية التى قال إن الشاعر مدح بأبيات منها أبا العباس السفاح ، فإننا لا نشك فى إنشاد طريح هذه القصيدة للمنصور ، إذ تأكد اتصاله به فى لقاء نقدى أورده أبو الفرج ، وتكشف فيه عتاب المنصور له فى شعر امتدح به الوليد ابن يزيد ، وأحسن طريح فيه الاعتذار .

وجاء فى الأغانى : « أن طريحاً دخل على أبى جعفر المنصور ، وهو فى الشعراء ، فقال له : لا حياك الله ولا بياك : أما اتقيت الله — ويلك ! حيث تقول للوليد بن يزيد :

لو قلت للسيل دع طريقك وال‍   موج عليه كالهضب يعتلج

(١) الأغانى ح٤ ص ٣٢٣

(٢) انظر المرجع السابق ح ٤ ص ٣٢٢

لساخ وارتد أو لكان له   فى سائر الأرض عنك منعرج

فقال له طريح : « قد علم الله عز وجل أنى قلت ذاك ويدى ممدودة إليه عز وجل ، وإياه تبارك وتعالى عنيت . فقال المنصور : يا ربيع ، أما ترى هذا التخلص »(١) .

وإذا كان ياقوت الحموى قد ذكر وفاة طريح عام ١٦٥ هـ — وهو حجة فى إثبات تاريخ الوفيات ، فإننا نقبل ما أورده ابن عساكر حول وفادة طريح على المهدى(٢) وقول المهدى له :

ألست الذى تقول فى الوليد بن يزيد :

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم   تطرق عليك الحنى والولج

والله لا تقول فى مثل هذا ، ولا أسمع منك شعراً ، وإن شئت وصلتك »(٣) .

وهكذا وضح لنا أن اتصال طريح بالخلفاء العباسيين كان محصوراً ، ولا يتعدى المواقف البسيطة التى تتهيأ لأكثر الشعراء ، ولا توازن بما كان بينه وبين بعض الخلفاء الأمويين ، وبخاصة ممدوحه الوليد بن يزيد الذى أكرمه وأفاض عليه بعطفه وإحسانه .

رابعاً — أغراضه الشعرية :

تنوعت الأغراض الشعرية عند طريح الثقفى ، ولم يكن من القلائل

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ٣١٥ ، ص ٣١٦

(٢) توفى المهدى عام ١٦٩ هـ .

(٣) انظر تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٥٨ طبع دمشق عام ١٣٣٢ هـ .

الذين تخصصوا فى لون شعرى أو لونين ، فرأيناه يقول فى المدح والاعتذار والوصف والفخر والرثاء ، وغيرها ، ولم تكن هـــذه الأغراض لديه بدرجة واحدة على ما سوف نرى فيما يأتى :

١ — المدح .. إن شاعرنا طريحاً واحد من شعراء المديح ، وإن أكثر ما قاله فى هذا الفن توجه به إلى الوليد بن يزيد ، حيث ارتبط الإثنان بعلاقة متميزة ، استمرت مدة طويلة ، امتدح الشاعر فيها الوليد يوم أن كان أميراً ، ويوم أن صار خليفة للمسلمين ، وأن هذا المديح لم يتوقف إلا مدة قصيرة أفسد فيها الوشاة بين الرجلين ، ثم لم يلبث أن عاد الشاعر إلى ممدوحه تائباً ومعتذراً . وكان الوليد مشدوداً إلى طريح الذى يمثل بالنسبة له الخؤولة الثقفية التليدة ، وقد تحدثنا عن القصائد التى امتدحه بها ، والتى جمع فيها أكثر الصفات التى يمتدح بها الإنسان مثل الكرم والشجاعة وعراقة الأصل وغيرها . ومما قاله فى مدحه سوى ما ذكرناه :

سعيت ابتغاء الشكر فيما صنعت بى
فقصرت مغلوباً وإنى لشاكر
لأنك تعطينى الجزيل بداهـــة
وأنت لما استكثرت من ذاك حاقر
فأرجع مغبوطاً ، وترجع بالتى
لها أول فى المكرمات وآخر
وقد قلت شعراً فيك لكن تقوله
مكارم مما تبتـــنى ومفاخر
قواصر عنها لم تحط بصفاتها
يراد بها ضرب من الشعر آخر(١)

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ٢ ص٣٦٣ نشر مكتبة الخانجى تحقيق عبد

وتقرأ له شعراً آخر امتدح فيه أشخاصاً لم تحددهم لنا المصادر التي رجعنا إليها كقوله :

وأشعث طـلاع الثنايا مبارك
يغول نجاد السيف وهو طويل(١)

وقوله :

جـواد إذا جئتـه راجيا
كفاك السؤال وإن عـدت عادا

خـلائقه كسبيك النضا
ر لا يعمل الدهر فيه فسادا(٢)

وقوله :

هانت غيثهم نفعـاً وطـودهم
دفعاً إذا ما مراد الممتشي جدبا(٣)

وهكذا برز طريح فى مدح الوليد ، وأطال فيما قال ، بينما جاء مديحه للآخرين قصيراً ،وفى حدود الصفات التى تحدث بها الشعراء إلى ممدوحيهم.

=عبد السلام هارون وجاءت الأبيات الثلاثة [من ١–٣] بحماسة أبى تمام مع اختلاف فى بعض الكلمات، انظر شرح الحماسة للمرزوقى ح٤ ص ١٧٩٠ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون

(١) أمالى المرتضى القسم الأول ح ١ ص ١٧١ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم — مطبعة عيسى الحلبى ١٣٧٣هـ(١٩٥٤م) الطبعة الأولى

(٢) المرجع السابق ح١ ص٥٧٤

(٣) لسان العرب لابن منظور مادة (مشى) ح٦ ص ٤٢١٣ طبعة دار المعارف

ونحن نضمه إلى شعراء المدح لكثرة شعره فى هذا اللون، مع أنه كان من المتكسبين بفنهم، وبخاصة ما اتجه به إلى الوليد بن يزيد.

٢ — الاعتذار: وهو لون نشأ فى ظلال المديح، وإن تداخلت فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء، كما قال الدكتور شوقى ضيف(١)، ويقترب منه فن العتاب الذى ينشئه بعض الشعراء؛ لما قد يصيبه من أذى الأقارب وهذا ما تحقق فى بعض ما قاله طريح بعد أن أفسد الحساد فيما بينه وبين الوليد. ومما اعتذر به إليه فى القصيدة العينية التى امتدحه بها وسبق أن تحدثنا عنها، قوله:

يابن الخلائف إن سخطك لامرىء
أمسيت عصمته بلاء مفظع

فلأنزعن عن الذى لم تهوه
إن كان لى ورأيت ذلك منزع

فاعطف — فداك أبى — على توسعاً
وفضيلة فعلى الفضيلة تتبع

فلقد كفاك وزاد ما قد نالنى
إن كنت لى ببلاء ضر تقنع(٢)

وفى تاريخ هذا الشاعر ما يسجل اعتذاره للوليد — فى موقف رواه أبو الفرج — بطريقتين اعتذر فيهما بقصيدة من غير مدائحه فيه. ومن تلك الأبيات التى اعتذر بها إليه قوله:

يابن الخلائف مالى بعد تقربة
إليك أقصى وفى حاليك لى عجب

(١) انظر — تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى ص ٢١١
(٢) الأغانى ج ٤ ص ٣١٤

ما لى أزاد وأقصى حين أقصدكم

كما توقى من ذى العرة الجرب(١)

وهكذا قصر طريح شعر الاعتذار والعتاب على الوليد بن يزيد ، ولم ترو لنا المصادر أنه قال شعراً يعتذر فيه لغيره .

٣ — الوصف . . وهو أعم الأغراض الشعرية ، وترجع إليه أكثر فنون القريض ، ومما قاله فى وصف الشيب ، وبيان ما أحدثه بالإنسان :

وترى المشيب بدا ، وأقبل زائراً بعد الشباب فنازل ومودع

والشيب للحكماء من سفه الصبا بدل تنال به الفضيلة مقنع

والشيب زين بنى المروءة والحجا فيه لهم شرف ومجد يرفع(٢)

وقد أورد ياقوت مقطوعة ثانية له فى وصف المشيب ، كما ذكر له سبعة أبيات فى أحداث الدهر ، ويلاحظ على هذه النماذج وغيرها أنها تندرج فى موضوع(الوصف) ، وأن طريحاً معنى ببث الحكمة والوعظ فى شعره . ويبدو أنه لجأ إلى هذه الأشعار فى المرحلة الأخيرة من عمره بعد أن طوحت به الأيام ، وغاب عنه الخلان ، وافتقد الصديق والرفيق .

٤ — الغزل . . وهو فن واسع من فنون الشعر ، حيث يعرض له الشعراء فى مطالع قصائدهم وفى سائر الأبيات بذلك تتحول القصيدة كلها إلى نسيب وتشبيب . . ولطريح أبيات غزلية قالها عن الأطلال مثل :

تستخبر الدمن القفار ، ولم تكن لترد أخباراً على مستخبر

فظللت تحكم بين قلب عارف معنى أحبته وطرف منكر(٣)

---

(١) المرجع السابق حـ ٤ ص ٣١٠
(٢) معجم الأدباء حـ ١٢ ص ٢٤
(٣) زهر الآداب حـ ١ ص ٢٤٠

وكان قد أخذ معنى هذين البيتين من قصيدة أمرىء القيس :

ألما على الربع القديم بعسعسا

واستلب منها الوقوف على الأطلال ، وصاغه تلك الصياغة السابقة .

وقد تحدث طريح فى أبيات له عن ارتحال أهل المحبوبة ، وعن تأثير الفراق عليه ، كما وصف معشوقته وصفاً حسياً فقال :

نامت خلاخلها وجال وشاحها
وجرى الوشاح على كثيب أهيل
فاستيقظت منه قلائدها التى
عقدت على جيد الغزال الأكحل(١)

وليست للشاعر تجربة طويلة فى العشق تستحوذ على قلبه وشعره ، بل إن ما قرأناه له لا يعدو أن يكون من الأبيات التقليدية التى يقولها الشاعر فى بعض المواقف تعبيراً عن حالة معينة . وليست لدينا قصيدة طويلة أفرغ فيها حديثه وحبه عن إحدى المعشوقات ، كما نرى عند الشعراء الآخرين(٢) .. حتى البيتين اللذين ذكرناهما له قيل إنه سطا على معناهما من قصيدة لامرىء القيس .

٥ — أغراض أخرى ... وهى موضوعات متنوعة مثل الرثاء والفخر والحكمة ، وليس منها الهجاء إذ لم يقع بين أيدينا أبيات له فى هذا اللون . وقد أورد له الآمدى بيتاً يرثى فيه قوماً وهو :

---

(١) لسان العرب مادة (يقظ) ح٦ ص ٤٩٦٤

(٢) أورد صاحب كتاب (شعراء ثقيف ..) سبعة أبيات لطريح نقلا عن كتاب «نقد الشعر» وكلها من النسيب التقليدى «ألم الفراق والوصف الحسى لمفاتن المرأة»

فلله عيناً من رأى قط حادثا
كفرس الكلاب الأسد يوم المشلل(١)

وذكر الآمدى أن أبا تمام قد أخذ معنى هذا البيت، فأجاد فى الأخذ قال:

من لم يعاين أبا نصر وقائله ... فما رأى ضبعا فى شدقها سبع

ولكنه عقب على هذا الأخذ الذى رآه فقال: « وهذا معنى متداول، وقد يجوز أن يكون أخذه الطائى من غير هذا الموضع »(٢)، وهذا — بالطبع — احتراس تفرضه أمانة الكلمة التى يحرص عليها، ويدعو لها الحسن بن بشر الآمدى.

خامساً — خصائص شعره:

١ — لقد تفرق شعر طريح بين أمهات الكتب، ولا بد أن بعضه قد ضاع مع مرور الأيام، ما دام هذا الشعر لم يجمع فى ديوان، كما حدث مع بعض الشعراء المقلين ممن هم فى مستوى هذا الشاعر، ولكن أحد الباحثين(٣) قد جمع ما استطاع جمعه فى فصل من أطروحة جامعية طبعها نادى الطائف الأدبى فى كتاب أنيق.

ولكن ذلك لا ينفى أن شعر طريح كان قليلا بصفة عامة، وهذه سمة غلبت على شعراء الطائف، فهم قوم حضريون وأهل قرى ومزارع.

٢ — يتميز طريح بتخصصه فى شعر المديح، وانفراده بشخص واحد هو الوليد بن يزيد الذى التق به، وعكف على الإشادة به والاعتذار إليه.

(١) الموازنة بين أبى تمام والبحترى ح١ ص٨٩
(٢) المرجع السابق ح١ ص٨٩
(٣) هو: عيضة بن عبد الغفور الصواط.

٣ — جاءت الحكمة فى شعر طريح متنوعة بين أبيات الشيب والوعظ والنسيب ، أى أن الحكمة توزعت بين أكثر قصائده ومقطوعاته .

٤ — خالف طريح شعراء الطائف ، فلم يبرز شعره فى الفخر ، وإن كانت له بعض الأبيات والمقطوعات التى اتسمت فى مجموعها بالفخر التقليدى .

٥ — حفلت كتب الأدب والنقد والتاريخ بنماذج عديدة من شعر طريح مثل الأغانى وكتب الحماسة ، والبيان والتبيين ، والشعر والشعراء ، ومعجم الأدباء ، والموازنة ، وغيرها . وهذا ما يؤكد قدرته التى تجاوزت حدود الطائف وانتقلت إلى المدن العربية الكبرى فى الشام والعراق .

٦ — وأخيراً .. سيبقى طريح بن اسماعيل الثقفى مهما قيل عن شعره ، ومهما كتب عنه أنه الشاعر الذى قال عن الوليد بن يزيد ما لم يقله شاعر آخر فى عصر بنى أمية ، ولذلك استحق — عن جدارة — أن يكون شاعراً له منذ أن كان أميراً وإلى أن كان خليفة للمسلمين .

الفصل السابع

شعراء آخرون

ذكرنا فى فصول سابقة — من هذا الباب — أشهر الشعراء فى الطائف ممن كانوا من ثقيف أو غيرها . واحتفظ التاريخ ببعض الأسماء الأخرى وهم ليسوا فى مرتبة من ذكرناهم . وسوف نعرض فى هذا الفصل لثلاثة من هؤلاء المغمورين (شعرياً) .

١ — القاسم بن أمية :

لقد تأصل الشعر فى أسرة أمية بن أبى الصلت ، وسبق أن تحدثنا عنه وعن أبيه فى الباب الأول . وكنا قد أشرنا أيضاً إلى أن لأمية أربعة أبناء منهم اثنان من الشعراء ، وهما ربيعة والقاسم .

أما ربيعة فقد رويت له بعض المقطوعات لكنه لم يكن فى شهرة أخيه القاسم الذى نعرض له هنا .

وقد عاش القاسم بن أمية بن أبى الصلت فى فلك أبيه ، لكنه قد خالفه فى موقفه من الإسلام ، حيث عاش القاسم فى معية الدعوة الإسلامية ، ورثى عثمان بن عفان بقصيدة جاء فيها :

لعمرى ليس الذبح صحبتهم به
خلاف رسول الله يوم الأضاحى
فطيبوا نفوسا بالقصاص فإنه
سيسعى به الرحمن سعى نجاح(١)

(١) راجع الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر (مادة القاسم) .

كان القاسم واحداً من الشعراء المغمورين فى عصر صدر الإسلام ، فلم يكن فى المستوى الذى ارتقى إليه أبوه ، أو جده ، ويبدو أنه مارس التجارة ، وارتحل إلى مكة ، والتقى بعبدالله بن جدعان ، ذلك الرجل الثرى الذى امتدحه أمية بمجموعة من القصائد .

وقد جاء فى (الأغانى) و(الشعر والشعراء) أن القاسم مدح ابن جدعان أيضاً وقال فيه :

قوم إذا نزل الحريب بدارهم
تركوه رب صواهل وقيان

فإذا دعوتهم ليوم كريهة — سدوا شعاع الشمس بالخرصان

لاينقرون الأرض عند سؤالهم — لتطلب العلات بالعيدان

بل يبسطون وجوههم فترى لها — عند السؤال كأحسن الألوان(١)

وأول هذه القصيدة :

قومى ثقيف إن سألت وأسرتى — بهم أدافع ركن من عادانى(٢)

وقد أشار القدماء والمحدثون إلى التداخل بين أشعار أسرة أبى الصلت فذكروا مثلا الاضطراب الذى حل بالقصيدة التى قيلت فى مدح سيف ابن ذى يزن ، فقيل إنها لأمية ، وقيل إنها لأبيه (الصلت بن ربيعة) ، كما حدث مثل هذا الاضطراب فى القصيدة التى ذكرنا بعض أبياتها آنفاً ، حيث رواها الأكثرون للقاسم ، بينما ذكر البعض أنها لأمية ، ولذلك لا نرتاح للحكم على شعر القاسم ، وهو المغنى بهذا الحديث فى ظل هذا الاضطراب الذى حل عليه وعلى الشعراء من أسرته .

---

(١) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٤٦٩ .

(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٢٠ .

٢ — المغيرة بن شعبة :

أسهم بعض الثقفيين فى تصريف أمور الدولة الأموية مثل الحجاج والمغيرة بن شعبة والمختار بن أبى عبيد الثقفى ، ومحمد بن القاسم الثقفى والقاسم ابن عمر الثقفى وغيرهم ، وقد حفظ التاريخ بعض النماذج الشعرية القليلة لهؤلاء وأمثالهم ، ومن هنا يظن البعض أنهم من الشعراء ذوى المواهب الكبيرة فى حين أن قدراتهم محدودة جداً فى هذا الفن ، وإن كان الرواة قد أعطوهم — لمكانتهم السياسية — أكثر مما يستحقون ، فحفظوا عنهم القليل الذى قالوا ، وغفلوا عن الكثير الذى قاله بعض المغمورين الآخرين .

وكنت قد تصفحت الأغانى فوجدته عقد ترجمة مطولة تزيد عن العشرين صفحة للمغيرة بن شعبة ، واستهلها بمقطوعة غزلية له ، فظننت — فى أول الأمر — أن شاعرية المغيرة فوق ما أظن ، وإذ بى أجد أن عناية أبى الفرج به لأنه من الساسة الذين تمتلىء حياتهم بالكثير من الطرف والغرائب والمغامرات .

وكان المغيرة بن شعبة بن أبى عامر الثقفى قد ولد فى الطائف قبل الهجرة بعشرين عاما ، واعتنق الإسلام قبل قومه ، وكان من أذكياء العرب وقادتهم ، وذوى الرأى منهم ، واشتهر بالدهاء ، وجودة الرأى حتى قيل له (مغيرة الرأى) ، ولم يعتلج فى صدره أمران إلا اختار أحزمهما . وكلفه الرسول بهدم (اللات) ، وشهد المغيرة معه الحديبية وما بعدها ، وتحدث أبو الفرج عن بعض مشاهداته فقال : « وبعثه أبو بكر رضى الله عنه إلى أهل النجير(١) ، وشهد فتح اليمامة وفتوح الشام ، وكان أعور ، أصيبت

---

(١) حصن باليمن تواجد فيه بعض المرتدين .

عينه فى يوم اليرموك ، وشهد القادسية مع سعد بن أبى وقاص . فلما أراد مراسلة رستم لم يجد فى العرب أدهى منه ، ولا أعقل ، فبعث به إليه ، وكان السفير بينهما حتى وقعت الحرب ، (١) .

وولاه عمر بن الخطاب عدة ولايات منها البصرة ، وهزم الفرس بعدها فى عدة معارك ثم عزله عنها ، وولاه الكوفة ، وأقره عثمان عليها ثم عزله ، ولما بايع معاوية أعاده إلى ولايتها ، وبقى بها إلى أن توفى سنة خمسين من الهجرة . وقد سار على نهج الأمويين فى معاداة الشيعة والعلويين ، فكان يسب على بن أبى طالب من فوق المنابر ، ويلعن قتلة عثمان بن عفان ويترحم عليه .

وكان أبو الفرج قد ذكر له أربعة أبيات فى مستهل حديثه عنه وهى :

أدركت ما منيت نفسى خاليا
لله درك يا بنة النعمان !
إنى لحلفك بالصليب مصدق
والصلب أصدق حلفة الرهبان
ولقد رددت على المغيرة ذهنه
إن الملوك بطيئة الإذعان
يا هند حسبك قد صدقت فأمسكى
والصدق خير مقالة الإنسان (٢) .

وقد قال هذا الشعر فى هند بنت النعمان بن المنذر فزوجته ، وذكر الأغانى — عن الشعبى — مناسبة نظم الأبيات له فقال : ركب المغيرة إلى

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٧٩ .
(٢) المرجع السابق ج ١٦ ص ٧٨ .

شعبة إلى هند بنت النعمان بن المنذر ، وهي بدير هند ، متنصرة ، عمياء بنت تسعين سنة . فقالت له : من أنت ؟ قال : أنا المغيرة بن شعبة قالت : أنت عامل هذه المدرة ؟ تعني الكوفة . قال : نعم . قالت : فما حاجتك ؟ قال : جئتك خاطباً إليك نفسك . قالت : أما والله لو كنت جئتني تبغي جمالا أو ديناً أو حسبا لزوجناك ، ولكنك أردت أن تجلس في موسم من مواسم العرب ، فتقول : تزوجت بنت النعمان بن المنذر ، وهذا والصليب أمر لا يكون أبداً ، أوما يكفيك فخرا أن تكون في ملك النعمان وبلاده ، تدبرهما كما تريد ، وبكت — »(١) .

وكان المغيرة قد نصح علي بن أبي طالب بأن يبقى معاوية على الشام ، فلم يستجب له ، فقال ابن شعبة هذه الأبيات :

نصحت علياً في ابن هند نصيحة فرد فلم يسمع له الدهر ثانيه ؛
وقلت له أرسل إليه بعهده على الشام حتى يستقر معاويه
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته
فأم ابن هند عند ذلك هاويه
فلم يقبل النصح الذي جئته به
وكانت له تلك النصيحة كافيه(٢)

فهذه الأبيات ليست إلا مقطوعة نظمية تفتقد حرارة الشعر ، وإن وضحت فيها جرأة المغيرة على اثنين من الصحابة الاجلاء . أما المقطوعة الأولى فهي التي تحسب له في عداد الشعر ، وليس له في مستواها عما لم نذكره له ، وإن كان نتاجه قليلا جداً

(١) المرجع السابق ج ١٦ ص ٨٥ .
(٢) ذكرها كتاب شعراء ثقيف ص ٢٦٨ .

٣ — الحجاج بن يوسف الثقفى :

ولد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى بالطائف سنة إحدى وأربعين من الهجرة(١)، ويكنى بأبى محمد. وقد نشأ بالطائف وتثقف بها، وبدأ حياته العملية معلماً للصبيان، ثم صار جندياً فى جيش الأمويين، وتولى قتال عبد الله بن الزبير فى مكة، وانتصر عليه، وانتهت الثورة فى الحجاز بمقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، وبعد مقتله صلبه الحجاج فى أحداث مؤلمة أفاضت كتب التاريخ والسيرة فى الحديث عنها، وقد صار الحجاج بعدها والياً على الحجاز، فأظهر للأمويين شجاعته وعنفه ومقدرته فى إخماد الثورات فى السنوات الثلاث التى استمر فيها والياً على الحجاز، ثم قلده عبد الملك أمر العسكر فى الجيش الأموى، فقضى على ما كان يشتكى منه عبد الملك من تواكل بين الجنود، فى الوقت الذى كانت فيه الثورة ضد الأمويين بالعراق لا تزال مستمرة، فاهتبل الحجاج الفرصة، وكتب إلى عبد الملك يقول: «إنى حزت الحجاز بشمالى وبقيت يمينى فارغة» فرد عليه بعهد توليته العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة خلفاً لبشر بن مروان الذى أتاح بوفاته فى السنة نفسها لعبد الملك أن يختار والياً معروفاً بالصلابة والعنف [illegible]

[illegible]

وكانت له مواقع شديدة مع الخوارج ما كان لغيره أن يقدر على القيام بها وتحمل أعبائها، وقد بنى مدينة (واسط) فى بادية النبط بالعراق، ومات ودفن فيها سنة خمس وتسعين من الهجرة.

يعد الحجاج من أشهر الخطباء السياسيين فى العصر الإسلامى، وكان يستعين بموهبته الخطابية وقدرته البلاغية فى إقناع خصومه وتحريكهم إلى ما يريد. [illegible]

---

(١) وقيل سنة ٤٠ هـ [illegible]

شعره :

لقد تفوق الحجاج بن يوسف في نواح كثيرة أفاض الكاتبون في الحديث عنها، غير أن موهبته في الشعر لم تكن في مستوى قدراته الأخرى إذ أنه من المقلين، ولم ترو عنه إلا مجموعة صغيرة من القصائد والمقطوعات التي قالها في مناسبات متعددة، وأوردتها بعض المصادر مثل مروج الذهب والبداية والنهاية ، والحماسة البصرية وذيل (الأمالي) ووفيات الأعيان وغيرها .

وقد جمع عيضة الصواط ما تيسر الوصول إليه من شعره ، مع تخريجه وإيضاح الغامض من ألفاظه(١).

خصص المسعودي جزءاً كبيراً من كتابه (مروج الذهب) للحديث عن الحجاج ، ولبيان ماله وما عليه ، وبخاصة الوقائع التي خاضها مع ابن الأشعث، وكان عبد الملك قد استاء من إسرافه في قتل أسارى دير الجماجم وهو الموقع الذي شهد العديد من لقاءات الحجاج مع ابن الأشعث ، فكتب إليه رسالة ذيلها بسبعة أبيات، وكان أن رد عليه الحجاج بجواب ختمه أيضا بثمانية أبيات، وقال المسعودي : إنها من جيد ما اختاره من شعر الحجاج وهذه هي الأبيات المذكورة، وليرجع من شاء إلى الرسالة.

قال :

إذا أنا لم أتبع رضاك وأتق
أذاك فيومي لا تزول كواكبه

وما لامرئ بعد الخليفة جنة
تقيه من الأمر الذي هو راكبه

---

(١) في كتاب (شعراء ثقيف) الذي أخرجه نادي الطائف الأدبي .

أسائل من سائلت من ذوى قرابة
ومن لم تسائله فإنى محاربه
إذا فارق الحجاج مثلك خطيئة
فقامت عليها فى الصباح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه
وأقصى الذى تسرى إلى عقاربه
فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى
مصاولتى ، والدهر جم نوائبه
فقف بى على حد الرضا لا أجوزه
مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
وإلا ، فدعنى والأمــور فإننى
شفيــق رفيــق أحكمتنى تجاربه(١)

وذكر القالى فى حديثه عن الحجاج أنه لما حضرته الوفاة وأيقن الموت ، وأذن للناس فدخلوا عليه أنشأ يقول :

إن ذنبى وزن السموات والأر
ض وظنى بخالقى أن يحـابى
فلئن من بالرضا فهــو ظنى
ولئن مر بالكتاب عذابى
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظـ
ـلم رب يرجى لحسن المآب(٢)

---

(١) مروج الذهب ، للمسعودى جـ ٣ ص ١٦٣ تحقيق الدكتور مفيد قميحة طبع دار الكتب العلمية — بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م

(٢) كتاب ذيل الأمالى والنوادر ص ١٩١ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م .

ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبد الملك :

أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فبطش بالراعى ومزق المرعى كل ممزق ، وقد نزل بمولاك مانزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانا لخطاياه وتكفيراً لما حمل من ذنوبه . ثم كتب فى آخر الكتاب .

إذا ما لقيت الله عنى راضيا
فإن شفاء النفس فيما هنالك

فحسبى بقاء الله من كل ميت
وحسبى حياة الله من كل هالك

لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا
ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

فإن مت فاذكرنى بذكر محبب
فقد كان جما فى رضاك مسالكى

وإلا ففى دبر الصلاة بدعوة
يلقى بها المسجون فى نار مالك

عليك سلام الله حيا وميتا
ومن بعد ما تحيا عتيقا لمالك(١)

وبعد أن دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد المجاشعى ، وسأله عن سكرات الموت ، وخاطبه بما أيأسه ، رفع رأسه ونظر إليه وأنشأ يقول :

رب إن العباد قد أيأسونى
ورجائى لك الغداة عظيم(٢)

(١) المرجع السابق ص ١٩١ ، ص ١٩٢
(٢) المرجع السابق ص ١٩٢

ولعل فى هذه النماذج ما يكشف عن التوجهات الشعرية لدى الحجاج فهو خطيب متفرد وسياسى بارع جبار، أما الشعر فلم يتجاوز به حدود المستوى الذى وضح فى النماذج السابقة. فليس لديه إلا بعض الأشعار التى فرضتها مجموعة من المواقف والمناسبات المتعددة، ويأتى فى مقدمتها ردوده وإجاباته على بعض الخلفاء المروانيين، ونعنى بذلك عبد الملك وابنه (الوليد)، حول تصريف الأمور الإدارية المتصلة بشؤون الدولة ثم يأتى الموقف الثانى والذى تعرت فيه شخصية الحجاج من قوتها وجبروتها وأخذت تستعد فيه للموت.

وقد لاحظنا أن أشعار الحجاج لا تتجلى فيها القدرة البلاغية أو الموهبة الشعرية وإنما تظهر عليها ملامح الصنعة والنظم، ولذا جاءت أبياته ضعيفة فاترة على عكس خطبه التى جاءت قوية ملتهبة. كما وضح صدق المعاناة وحساب النفس فى الأبيات التى قالها عند الموت، ولذا قال له أبو المنذر الجاشعي: «أعززت بنى مروان، وأذللت نفسك، وعمرت دورهم وأخربت دارك، فاليوم لا ينجونك ولا يغيثونك»(١).

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٢

الخاتمـــة

نعرض فى هذه الخاتمة لثلاث قضايا عرضاً موجزاً مختصراً ، لكى نستكمل بهـا خطة الكتاب ومتطلبات الدراسة لهؤلاء الشعراء الذين تحدثنا عنهم :

١ ـ الخصائص العامة لشعراء الطائف :

لا يشترط أن يتلاقى كل الشعراء فى الجاهلية والإسلام تحت مظلة هذه الخصائص ، فلا يخفى على أحد أن الشعر من الفنون التى تستعصى على القيود ، وتأبى الانصياع للقوانين العامة ، كما أن الطائف بمصيفها الجميل تعد أفضل مكان فى الجزيرة العربية ، ولهذا أكسبت الشعراء رقة وعذوبة ولطف غزل ، مثلما أكسبت الأندلس شعراءها رقة وعذوبة بجمال المرأة وحسن المشهد وروعه الطبيعة .

● وقد تأثر شعراء الطائف ـ فى رقة الغزل ـ بشعراء مكة مثل عمر بن أبى ربيعة وغيره ، فالمدينتان تقعان فى منطقة الحجاز ، والكثرة من أهل مكة كانوا ـ ولا زالوا ـ يقضون الصيف بالطائف وسبق أن ذكرنا أن محمد بن عبد الله النميرى وصف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية ، لأنها كانت تشتو بمكة ، وتقضى الصيف بالطائف . كما أن العرجى ـ وهو قرشى ـ عاش فى إحدى قرى هذه المدينة الجميلة .

● تبين ـ من خلال الفصول السابقة ـ تأثر شعراء الطائف بمدينتهم

فى طبيعتها وظروفها المناخية وهدوء الحياة الإجتماعية بها — كما تأثروا أيضاً — فى شيوع الغزل ورقة النسيب ببعض الشعراء فى مكة المكرمة، فهى أكثر المدن قرباً من الطائف .

• تميز شعراء الطائف ببعض الأغراض أو الألوان الشعرية التى برزوا فيها ، ومن أهمها : شعر الفخر ، الذى لا نكاد نجد واحداً من المشهورين منهم لم يقل قصائد ومقطوعات فيه فقد برع فيه أميه ويزيد بن حنبة وغيرهم وأعتقد أن ذلك راجع لمكانة (ثقيف) فى الجاهلية والإسلام ، فهى أكثر القبائل عدداً وقوة فى ذلك الوقت ، كما أن أكثر الشعراء كانوا من هذه القبيلة صاحبة الأمجاد التاريخية العظيمة، وترجع عناية الشعراء بالفخر والثقة بالنفس لقوة مدينة الطائف التى أشعرت أهلها بالحماية والحصانة والتميز ، وهى الصفات التى لم يرق إليها الأكثرون من أهل المدن الأخرى وليس بغريب علينا قول الشاعر (الطائفى) :

نحن بنينا حائطا حصينا يقارع الأبطال عن بنينا

• وتميز شعراء الطائف بقول الحكمة ، ومن أشهر من برز فى هذا اللون ذو الإصبع العدوانى وأمية بن أبى الصلت (من الجاهليين) ويزيد بن الحكم وطريح الثقفي (من الإسلاميين) . وتأتى الحكمة — غالباً — لدى الشعراء الذى يتصفون بكثرة المعارف ، والخبرة والتجارب الإنسانية ، فضلا عن الحياة المستقرة الهادئة التى نعم بهـا هؤلاء الشعراء وغيرهم من أبناء الطائف .

• ولقد تفوق أكثر الشعراء فى قول الغزل ، وذلك راجع — بصفه أساسية — إلى الحياة الناعمة الوارفة ، والفراغ من المشاغل والبعد عن الصراعات بسبب الحالة الاقتصادية التى نعم بها الطائفيون ، ثم إن هؤلاء

الشعراء لم يكونوا بعيداً عما يجرى فى مكة ، إذ أنهم تأثروا بمستوى الغزل فيها ، وكان معظمهم يتغزل وفى ذاكرته ما قاله عمر بن أبى ربيعة فى صويحباته ، وقد لا حظنا التقارب الكبير بين قصيدة العرجى فى (كلابة) وقصيدة عمر فى (نعم) ، ولعل العرجى كان — فى بعض الفترات — حلقة الاتصال بين الاعتدال فى التشبيب ووصف المرأة الذى انتهجه شعراء الطائف والإغراق فى الحسية وإبراز المحاسن الجسدية التى انتهجها شعراء مكة ، أما محمد بن عبد الله النميرى ، فكان ذا سلوك متميز حيث اتجه إلى أساليب الغزل عند شعراء البادية ، فقال فى زينب بنت يوسف ما لم يقله العرجى فى أم الأوقص أو كلابة ، ولا بد من ذكر أن العرجى من قريش ، وعاش فترة من حياته فى مكة فهو قريب من شعرائها، بل لا يكاد يختلف عنهم إلا بمقدار الفوارق بين الشخصيات فى المنطقة الواحدة .

● أفاض شعراء الطائف فى المديح ، وهو من الفنون العامة التى يندر أن تجد شاعراً لم يقل فيه شيئاً ، فلقد مدح أمية عبد الله بن جدعان ، وامتدح الشاعران يزيد بن ضبة وطريح الثقفى الوليد بن يزيد ، كما امتدح النميرى عبد الملك بن مروان بينما امتدح يزيد بن الحكم سليمان بن عبد الملك ، ويلاحظ أن عناية شعراء الطائف كانت موجهة إلى مدح الخلفاء الأمويين ، وليس خافياً ما كان بين (ثقيف) ونظام الحكم الأموى .

● أما الخمر فلم يقل فيها أحد مثل ما قال أبو محجن الثقفى ، فقد شربها وتفانى فى الحديث عنها حتى أنه أوصى بأن يدفن إلى جنب كرمة تروى عظامه بعد موته ، ويبدو أن شهرة الطائف فى زراعة العنب وصناعة الزبيب قد انعكست عليه ، فشربها ، وتحدث عنها فى شعره كثيراً .

● ولسوف تتضح بقية الخصائص فى السطور التالية .

٢ — موازنة بين شعراء الطائف في الجاهلية وشعرائها في الإسلام .

• يلاحظ من خلال فصول الكتاب قلة الشعراء في الجاهلية ، فلم يكن بينهم من يستحق أن يطلق عليه لقب شاعر إلا اثنين أو ثلاثة ، ولما أهلت أنوار الإسلام ، وأقبل المكيون على الطائف تكاثر الشعراء بها بدرجة محدودة ثم إن وجود قبيلة ثقيف بالطائف أسهم في تزايد أعداد المغمورين من الشعراء حيث أقبل الرواة وحفظة الشعر على تسجيل ما قاله الثقفيون ولو كان قليلا تافها .

• أما موضوعات الشعر في الجاهلية فلا تكاد تختلف عنها في الإسلام باستثناء شيء واحد وهو الشعر الديني الذي تميز به أمية بن أبي الصلت ، فلم يوجد في الجاهلية أو في الإسلام من تأثر به أو نهج نهجه أو قال مثل كلامه ولا زال أمية متفرداً في هذه الأشعار أما الدافع إليها فكان طمعه في النبوة ، واطلاعه على الثقافات القديمة ، وقراءته لبعض أفكار الأمم الأخرى .

• أما بالنسبة للألفاظ فلدينا ملاحظتان عليها ، ففي الجاهلية تميز شعر أمية بتوليده لكلمات ليست لهـا جذور عربية ، فقد سمى السماء (صاقورة) و (ساقورة) وكان يزعم أن للقمر غلافا يدخل فيه إذا خسف ويسميه (الساهور) كما كان يسمي الله عز وجل السلطيط) و (التغرور) ونحو ذلك . وكأنه أراد التفرد والتميز على شعراء عصره ، ويبدو أن طمعه في النبوة وثقافته العميقة قد أتاحا له أن يقول ما لم يقله العرب .

والملاحظة الثانية : أن الشاعر (يزيد بن ضبة) قد قال بعض الشعر الذي لا يساير بألفاظه طبائع العصر الإسلامي ، وكأنه أقتبس كثيراً من مفرداته من البادية أو من العصر الجاهلي .

٣ — أهم النتائج التي تستفاد من هذا الكتاب .

● تميز الطائف بصلة الشعر وكثرة الشعراء في العصر الإسلامي بصفة خاصة ، حيث أسهمت المتغيرات الجديدة في إفراز بعض الشعراء من ذوى الكفاءات والمواهب المحدودة .. وكان لقبيلة ثقيف دور في ذلك حيث برزت على الساحة العربية في الجاهليـــة وعصر بنى أمية ، وزاد نفوذها في القرن الأول الهجرى ، وأصهر بعض الخلفاء الأمويين من هذه القبيلة ، وأخذوا هم وأبناؤهم يحتفلون بالشعراء من أهل الطائف ومن قبيلة (ثقيف) بخاصة ، كما أن الرواة وأهل الأدب قد أحاطوا بهؤلاء الخلفاء والأمراء — الذين يرتبطون بثقيف بعلاقات خاصة — جلسوا إليهم ، واستمعوا إلى ما يقوله الشعراء فيهم ، وأخذ الرواة هذه الأشعار فحفظوها ونقلوها إلى سائر الناس .

● كان لارتباط الشعراء بالقائمين على نظام الحكم في بنى أميه أن ظهرت المسحة السياسية على كثير من أشعار الطائفيين .

● لم يصل شعراء الطائف إلى مستوى الفحولة الشعرية ... لا في الجاهلية ولا في الإسلام .. وأعتقد أن ذلك راجع في المقام الأول إلى هدوء الحياة في منطقه الطائف وعدم قيام حروب طويلة بها حسب رؤية ابن سلام ... ولما عرض هذا الرجل لشعراء الطائف اختار بعض الأسماء التي لم تصل إلى هذه الدرجة وهم خمسة أبو الصلت بن ربيعة وابنه أمية وأبو محجن الثقفي وغيلان بن سلمة وكنانة بن عبد ياليل . ولم يذكر شيئا من الشعر للاثنين الآخرين .

وبالنظر إلى هـــذه الأسماء لا نجد من بينها من احتل منزلة كبيرة إلا أمية وأبا محجن الثقفي ، ثم توقف اختيار الجمحى عند مرحلة معينة ولم يتجاوزها .

• ارتبط شعراء الطائف ببيئتهم ، وانعكس ذلك على المعانى والألفاظ .

أما المعانى فلم تأت مخالفة لروح الشريعة الإسلامية ، ولدينا شعر النميرى (محمد بن عبدالله) الذى ما خرج عن طبيعة البيئة وأحكام الدين فى غزله لزينب بنت يوسف ، حتى أسماء المواضع التى أوردها فى غزله وفى سائر شعره اختارها من البيئة التى يعيش بها . ولم يخرج بألفاظه عن حدود الاستعمال العربى للكلمات أما ابن أبى الصلت فكان خروجه على الاستعمال العربى للمفردات كثيراً فى شعره الدينى كما سبق القول .

أهم المصادر والمراجع

١ ـ الارتسامات اللطاف للأمير شكيب أرسلان نشر مكتبة المعارف بالطائف .

٢ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير طبع دار الشعب عام ١٩٧٠ م .

٣ ـ أشعار الشعراء الستة الجاهليين (بحث للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى عن الشاعر أمية بن أبى الصلت) . دار الآفاق بيروت ١٩٧٩ م الطبعة الأولى .

٤ ـ الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر العسقلانى (طبع دار نهضة مصر) .

٥ ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلى ، طبع دار العلم للملايين ـ بيروت عام ١٩٨٤ الطبعة السادسة .

٦ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى طبعة دار الكتب المصرية .

٧ ـ أمالى الزجاجى تحقيق عبد السلام هارون ـ المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر ـ الطبعة الأولى عام ١٣٨٢ هـ .

٨ ـ أمالى المرتضى ـ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ـ طبع عيسى الحلبى ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) الطبعة الأولى .

٩ ـ إهداء اللطائف من أخبار الطائف لحسن بن على العجيمى تحقيق يحيى ساعاتى نشر دار ثقيف بالطائف ـ ١٤٠٠هـ (١٩٨٠ م) الطبعة الثانية .

١٠ — البداية والنهاية لابن كثير ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ هـ (١٩٣٣م) الطبعة الأولى .

١١ — بهجة المبهج فى بعض فضائل الطائف ووج لأحمد بن على الميورقى تحقيق الدكتور إبراهيم الزيد ، طبع نادى الطائف الأدبى ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤م) الطبعة الأولى .

١٢ — البيان والتبيين ، للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الخانجى بمصر ، الطبعة الرابعة .

١٣ — تاريخ آداب اللغة العربية — جرجى زيدان — طبع دار الهلال .

١٤ — تاريخ الأدب العربى — أحمد حسن الزيات الطبعة الخامسة والعشرون .

١٥ — تاريخ الأدب العربى د . ر بلاشير — ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلانى — طبع دار الفكر بدمشق ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) الطبعة الثانية .

١٦ — تاريخ الأدب العربى — كارل بروكلمان — ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، طبع دار المعارف ، الطبعة الخامسة . الجزء الأول .

١٧ — تاريخ الأدب العربى — العصر الإسلامى — دكتور شوقى ضيف . طبع دار المعارف بمصر الطبعة التاسعة ١٩٨١ م .

١٨ — تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى — دكتور شوقى ضيف . طبع دار المعارف بمصر الطبعة التاسعة ١٩٨١ م

١٩ — تاريخ الأدب العربى — الأدب القديم — عمر فروخ طبع دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤ الطبعة الخامسة .

٢٠ — تاريخ الطائف قديماً وحديثاً — مناحى ضاوى القثامى — نادى الطائف الأدبى .

٢١ — تحفة اللطائف فى فضائل الحبر ابن عباس ووج الطائف لمحمد الهاشمى طبع نادى الطائف الأدبى تعليق ومراجعة محمد سعيد كمال ومحمد منصور الشقحاء .

٢٢ — تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام للدكتور شكرى فيصل — طبع دار العلم للملايين — الطبعة السادسة .

٢٣ — جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى تحقيق على البجاوى . طبع دار نهضة مصر .

٢٤ — زهر الآداب لأبى إسحاق الحصرى ، تحقيق على البجاوى . طبع عيسى الحلبي — الطبعة الثانية .

٢٥ — حديث الأربعاء للدكتور طه حسين — طبع دار المعارف — الطبعة الثانية عشرة .

٢٦ — الحيوان للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون طبع مصطفى الحلبى ، الطبعة الثانية .

٢٧ — دائرة المعارف الإسلامية — نشر تهران — المجلد الخامس عشر .

٢٨ — ديوان أبى محجن الثقفى — صنعة أبى هلال العسكرى — نشر الدكتور صلاح الدين المنجد — دار الكتاب الجديد — بيروت .

٢٩ — الرسالة (مجلة) السنة ١٩ — العدد ٩١٣ — أول يناير ١٩٥١م .

٣٠ — رسالة الغفران — تحقيق كامل كيلانى — طبع ونشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر .

٣١ — رسالة الغفران — تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن — طبع دار المعارف ١٩٨١ م الطبعة السابعة .

٣٢ — الروض الأنف للسهيلى نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالصنادقية .

٣٣ — سمط اللآلى فى شرح أمالى القالى ، لأبى عبيد البكرى — طبع دار الحديث — بيروت ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) تحقيق عبد العزيز الميمنى .

٣٤ — سوق عكاظ فى التاريخ والأدب — إعداد لجنة من نادى الطائف الأدبى الطبعة الأولى .

٣٥ — السيرة النبوية لأبى محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق الدكتور أحمد حجازى نشر دار التراث العربى ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

٣٦ — شرح ديوان امرىء القيس لحسن السندوبى — المكتبة الثقافية — بيروت ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م) الطبعة السابعة .

٣٧ — شرح ديوان أمية بن أبى الصلت تحقيق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب — نشر دار مكتبة الحياة — بيروت .

٣٨ — شرح ديوان الحماسة لأبى على المرزوقى تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

٣٩ — شرح المفضليات — للتبريزى تحقيق على البجاوى ، طبع دار نهضة مصر .

٤٠ — الشعر والشعراء لابن قتيبة — تحقيق أحمد شاكر ١٩٧٧ م الطبعة الثالثة .

٤١ — شعراء ثقيف فى العصر الأموى جمع وتحقيق ودراسة لعيضة ابن عبد الغفور الصواط — طبع نادى الطائف الأدبى .

٤٢ — شعراء النصرانية ، لويس شيخو — نشر مكتبة الأدبيه بالجامين .

٤٣ — الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام للدكتورة نادية حسن صقر — نشر دار الشروق بجدة ١٤٠١ ﻫ (١٩٨١م)، الطبعة الأولى.

٤٤ — الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية للدكتور عبدالجبار منسى — نشر دار الرفاعى بالرياض ١٤٠٢ ﻫ ١٩٨٢ م الطبعة الأولى .

٤٥ — طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى — تحقيق محمود شاكر — مطبعة المدنى بالعباسية .

٤٦ — العقد الفريد لابن عبد ربه — تحقيق محمد سعيد العريان — نشر دار الفكر .

٤٧ — العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — طبع دار الجيل — بيروت ١٩٧٢ م الطبعة الرابعة .

٤٨ — فتوح البلدان للبلاذرى — تحقيق صلاح الدين المنجد نشر مكتبة النهضة المصرية .

٤٩ — فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين — دار المعارف بمصر — الطبعة الرابعة عشرة .

٥٠ — فى منزل الوحى للدكتور محمد حسين هيكل — دار المعارف بمصر — الطبعة السابعة .

٥١ — الفيصل (مجلة شهرية تصدر بالرياض) السنة الأولى — العدد الرابع شوال ١٣٩٧ ﻫ (سبتمبر ١٩٧٧ م) .

٥٢ — فيض الخاطر — لأحمد أمين نشر مكتبة النهضة المصرية .

٥٣ — الكامل للمبرد — تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم طبع دار نهضة مصر .

٥٤ — كتاب أسماء جبال تهامة لعرام بن الأصبغ (ضمن المجلد الأول

لمجموعة نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون) . طبع مصطفى الحلبي ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣م)الطبعة الثانية .

٥٥ — كتاب الأمالي والذيل والتنبيه لأبي علي القالي . طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م حـ١ وعام ١٩٧٦ — حـ٢ .

٥٦ — لسان العرب لابن منظور طبع دار المعارف .

٥٧ — ما رأيت وما سمعت لخير الدين الزركلي — نشر مكتبة المعارف بالطائف .

٥٨ — مروج الذهب للمسعودي ، شرح الدكتور مفيد قميحة — دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦م) الطبعة الأولى .

٥٩ — معجم الأدباء لياقوت الحموي — نشر دار المأمون — طبع دار إحياء التراث العربي .

٦٠ — معجم البلدان لياقوت الحموي . طبع دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ (١٩٧٧ م) .

٦١ — معجم الشعراء للمرزباني — الطبعة الأولى — نشر مكتبة القدسي طبعة دار الكتب العلميه بيروت ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م) البطعة الثانية .

٦٢ — معجم ما استعجم للبكري الأندلسي تحقيق مصطفى السقا — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩م) .

٦٣ — المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي — دار العلم للملايين الطعبة الرابعة — بيروت ١٩٧٠م.

٦٤ — المنهل (مجلة سعودية تصدر في جدة) المجلد السادس العدد العاشر شوال ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦م) :

والسنة (٤٨) (جمادى الأولى والثانية ١٤٠٢ هـ) (مارس وإبريل ١٩٨٢ م) بالإضافه إلى مجموعة من الأعداد الأخرى .

٦٥ — الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العلمية — بيروت .

٦٦ — المؤتلف والمختلف للآمدي — ضمن كتاب معجم الشعراء الذي سبق ذكره .

٦٧ — نشر اللطائف في قطر الطائف لعلي بن محمد الكناني تحقيق عثمان محمود الصيني — طبع نادي الطائف الأدبي ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م) .

٦٨ — نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ثانياً — طريح وخلفاء بنى أمية	١٥٨
ثالثاً — طريح وخلفاء بنى العباس	١٦٤
رابعاً — أغراضه الشعرية	١٦٦
خامساً — خصائص شعره	١٧٢
الفصل السابع · شعراء آخرون	١٧٤
١ — القاسم بن أمية	١٧٤
٢ — المغيرة بن شعبة	١٧٦
٣ — الحجاج بن يوسف	١٧٩
الخاتمة	١٨٤
١ — الخصائص العامة لشعراء الطائف	١٨٤
٢ — موازنة بين شعراء الطائف فى الجاهلية وشعرائها فى الإسلام	١٨٧
٣ — أهم النتائج التى تستفاد من هذا الكتاب	١٨٨
قائمة بأسماء المصادر والمراجع	١٩٠
الفهرس	١٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب
٨٦٤٣ / ١٩٨٩ م